التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة هود
عليه السلام

لفضيله
الدكتور محمد السيد طنطاوى
الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

﴿ ربنـــا تقبل منا ، إنـــــك أنت السميع العليم ﴾

[الجزء الثاني عشر]

تعريف بسورة هود - عليه السلام -

١ – سورة هود – عليه السلام – هى السورة الحادية عشرة فى ترتيب المصحف ، فقد سبقتها فى هذا الترتيب سورة الفاتحة ، والبقرة ، وآل عمران والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، والأنفال ، والتوبة ، ويونس .

أما ترتيبها فى النزول ، فهى السورة الثانية والخمسون ، وكان نزولها بعد سورة يونس[1] .

٢ – وعدد آياتها : ثلاث وعشرون ومائة آية .

٣ – وقد سماها النبي – صلى الله عليه وسلم – بسورة هود ، فقد روى الترمذي وابن عباس قال : قال أبو بكر : يارسول الله قدشبت ! قال : «شيبتنى » هود » و « الواقعة » ، « المرسلات » و « عم يتساءلون » و « إذا الشمس كورت » .

وفى رواية : شيبتنى هود وأخواتها .

قال القرطبي بعد أن ساق بعض الأحاديث فى فضل هذه السورة «فى تلاوة هذه السور ما يكشف لقلوب العارفين سلطانه وبطشه فتذهل منه النفوس وتشيب منه الرءوس »[2].

٤ – متى نزلت سورة هود ؟

جمهور العلماء على أن سورة هود جميعها مكية ، وقيل هى مكية إلا ثلاث آيات منها : وهى قوله – تعالى – « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك ... » الآية ١٢ .

---

(١) راجع كتاب « البرهان فى علوم القرآن » للإمام الزركشى ج١ ص١٩٣ طبعة عيسى الحلبى تحقيق محمد أبى الفضل ابراهيم .

(٢) تفسير القرطبى ج ٩ ص ٢ طبعة دار الكاتب العربى بالقاهرة

وقوله — تعالى — « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه» الآية ١٧
وقوله تعالى : — « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل» الآية ١١٤

والذى نرجحه أن السورة كلها مكية ، وسنرى عند تفسيرنا لهذه الآيات التى قيل بأنها مدنية ، ما يشهد لصحة ما ذهبنا إليه .

كذلك نرجح أن هذه السورة الكريمة ، كان نزولها فى الفترة التى أعقبت حادث الإسراء والمعراج ، ذلك لأن نزولها — كما سبق أن أشرنا — كان بعد سورة يونس ، وسورة يونس كان نزولها بعد سورة الإسراء ، التى افتتحت بالحديث عنه .

وهذه الفترة التى كانت قبيل حادث الإسراء والمعراج والتى اعقبته، تعتبر من أشق الفترات وأحرجها وأصعبها فى تاريخ الدعوة الإسلامية .

ففى هذه الفترة مات أبو طالب عم النبى —صلى الله عليه وسلم— والمدافع عنه ، وماتت كذلك السيدة خديجة — رضى الله عنها — التى كانت نعم المواسى له عما يصيبه من أذى ... ففقد الرسول — صلى الله عليه وسلم — بموتهما نصيرين عزيزين ، كانت لهما مكانتهما العظيمة فى نفسه ، وتعرض — صلى الله عليه وسلم — فى هذه الفترة لألوان من الأذى والاضطهاد فاقت كل ما سبقها وبلغت الحرب المعلنة من المشركين عليه وعلى دعوته ، أقسى وأقصى مداها .

قال ابن إسحاق خلال حديثه عن هذه الفترة : ثم إن خديجة بنت خويلد وأبو طالب هلكا فى عام واحد ، فتتابعت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المصائب بهلك خديجة - وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها — وبهلك عمه أبى طالب - وكان له عضدا وحرزا فى أمره ، ومنعة وناصرا على قومه - ، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين .

فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الأذى ، ما لم تكن تطمع فيه فى حياة أبى طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه ترابا . .

ثم قال ابن إسحاق : فحدثنى هشام بن عروة ، عن أبيه عروة بن الزبير قال لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ذلك التراب دخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيته ، والتراب على رأسه ، فقامت عليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب ، وهى تبكى ، ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول لها : « لا تبكى يا بنية ، فان الله مانع أباك » .

قال : ويقول بين ذلك : « ما نالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب »[1] .

وسنرى عند استعراضنا للسورة الكريمة ، أنها صورت هذه الفترة أكمل تصوير .

٥ — مناسبتها لسورة يونس — عليه السلام — :

قال الآلوسى - رحمه الله - « ووجه اتصالها بسورة يونس ، أنه ذكر فى سورة يونس قصة نوح - عليه السلام - مختصرة جدا ومجملة ، فشرحت فى هذه السورة ، وبسطت فيها ما لم تبسط فى غيرها من السور . . . ، ثم ان مطلعها شديد الارتباط بمطلع تلك ، فان قوله - تعالى - هنا « الر . كتاب أحكمت آياته . . . » نظير قوله - سبحانه - هناك « الر . تلك آيات الكتاب الحكيم . . . » بل بين مطلع هذه وختام تلك شدة ارتباط - أيضا - ، حيث ختمت بنفى الشرك ، واتباع الوحى ، وافتتحت هذه ببيان الوحى والتحذير من الشرك »[2]

٦ — عرض إجمالى للسورة الكريمة :

عندما نطالع سورة هود بتدبر وتأمل ، نراها فى الربع الأول[3] منها — قد افتتحت بالتنويه بشأن القرآن الكريم . وبدعوة الناس إلى إخلاص العبادة

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٢ ص ١٤٥ .
(٢) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ١٧٨ الطبعة المنيرية .
(٣) الآيات من ١ — ٢٤ .

لله ـ تعالى ـ وحده، وإلى التوجه إليه بالاستغفار والتوبة الصادقة، حتى ينالوا السعادة فى دنياهم وآخرتهم .

قال ـ تعالى ـ : « الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله ، وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير » .

ثم وضحت السورة جانبا من مسالك الكافرين ، تلك المسالك التى تدل على جهالاتهم بعلم الله التام ، وبقدرته النافذة، وفصلت مظاهر هذه القدرة ، وشمول هذا العلم . . .

قال ـ تعالى ـ : « ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منـــه ، ألا حين يستغشون ثيابهم ، يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور » .

ثم بينت أحوال الإنسان فى حالة منحه النعمة ، وفى حالة سلبها عنه ، وساقت للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الآيات ما يسليه عما أصابه من كفار مكة ، وتحدتهم أن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن الكريم، وأنذرتهم بسوء عاقبة المعرضين عن دعوة الله ، الصادين عن سبيله ، الكافرين بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، وبشرت المؤمنين بحسن العاقبة ، وضربت المثل المناسب لكل من فريق الكافرين والمؤمنين .

استمع إلى السورة الكريمة وهى تصور كل ذلك بأسلوبها البليغ المؤثر فتقول :

« ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ، ليقولن ذهب السيئات عنى إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير . . . »

إلى أن تقول بعد حديث مفصل عن الكافرين وسوء عاقبتهم : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم

هم فيها خالدون . مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا ، أفلا تذكرون » .

فإذا ما وصلنا إلى الربع[١] الثانى من سورة هود ، وجدناها تسوق لنا بأسلوب مفصل ، قصة نوح — عليه السلام — مع قومه ، فتحكى أمره لهم بعبادة الله وحده ، كما تحكى الرد القبيح الذى رد به عليه زعماؤهم ، وكيف أنه — عليه السلام — لم يقابل سفاهتهم بمثلها ، بل خاطبهم بلفظ «ياقوم» الدال على أنه واحد منهم ، يسره ما يسرهم ، ويؤلمه مايؤلمهم ، ومع هذا فقد لجوا فى طغيانهم وقالوا له — كما حكى القرآن عنهم — « يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . . . »

فكان رده عليهم « إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين . . . »

وقد أتاهم الله — تعالى — بالعذاب الذى استعجلوه ، فأغرقهم بالطوفان الذى غشيهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، والذى قطع دابرهم .

ثم نراها بعد ذلك فى الربع[٢] الثالث ، تقص علينا مشهدا مؤثرا ، مشهد نوح — عليه السلام — وهو ينادى ابنه الذى استحب الكفر على الإيمان فيقول له بشفقة وحرص : « يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين » .

ولكن الابن العاق لايستمع إلى نصيحة أبيه العطوف بل يقول له : « سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء » .

ويجيبه الأب بحزن وحسم « لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » .

---

(١) الآيات من ٢٥ - ٤٠

(٢) الآيات من ٤١ - ٦٠

ويتضرع الأب الحزين إلى ربه فيقول : « رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين » .

ويأتيه الجواب من الله - تعالى — : « يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين » .

ويلجأ نوح - عليه السلام - إلى خالقه ، مستعيذا به من غضبه فيقول : رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم ، وإلا تغفرلى وترحمنى أكن من الخاسرين » .

فيقبل الله - تعالى - ضراعته فيقول : « يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك ، وعلى أمم من من معك ، وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » .

ثم يختم الله — تعالى — قصة نوح ، بتسلية النبي — صلى الله عليه وسلم - ، وبما يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، فيقول : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إن العاقبة للمتقين » .

ثم تسوق السورة بعد ذلك قصة هود - عليه السلام - مع قومه ، فتحكى دعوته لهم إلى عبادة الله - تعالى - ، ومصارحته إياهم بأنه لا يريد منهم أجرا على دعوته ، وإرشادهم إلى ما يزيدهم غنى على غناهم ، وقوة على قوتهم ، ولكنهم قابلوا تلك النصائح الغالية بالتكذيب والسفاهة ، فقالوا له - كما حكت السورة عنهم - « ياهود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . . . »

فيرد عليهم هود بقوله : « إنى أشهد الله ، وأشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها . . . »

ثم كانت النتيجة بعد هذه المحاورات ، أن نجى الله هودا ، والذين آمنوا معه ، أما الكافرون بدعوته ، فقد نزل بهم العذاب الغليظ ، الذى تركهم صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية . . .

وفى الربع[1] الرابع منها تسوق لنا السورة الكريمة ، مادار بين صالح وقومه ، حيث أمرهم بعبادة الله ، وذكرهم بنعمه عليهم ، وحذرهم من الاعتداء على الناقة التى هى لهم آية . . . ولكنهم استخفوا بتذكيره وبتحذيره فكانت النتيجة إهلاكهم ...

قال - تعالى - « فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا منه معه برحمة منا ، ومن خزى يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود » .

ثم قصت علينا السورة الكريمة ، ما فعله إبراهيم - عليه السلام - عندما جاءه رسل الله بالبشرى ، وكيف أنهم قالوا له عندما أنكرهم وأوجس منهم خيفة : « لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط ... »

ثم وضحت حال لوط - عليه السلام - عندما جاءه هؤلاء الرسل ، وحكت مادار بينه وبين قومه الذين جاءوا يهرعون إليه عندما رأوا الرسل ، فقال لهم : « ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ، فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى ، أليس منكم رجل رشيد ... »

فيقولون له فى صفاقة وانحراف عن الفطرة السليمة : « لقد علمت مالنا فى بناتك من حق ، وإنك لتعلم ما نريد » .

وأسقط فى يد لوط - عليه السلام - ، وأحس بضعفه أمام هؤلاء

---

(١) الآيات من ٦٢ - ٨٣

المنحرفين المندفعين إلى ارتكاب الفاحشة ، اندفاع المجنون إلى حتفه ، فقال بأسى وحزن : « لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » .

وهنا كشف له الرسل عن طبيعتهم ، وأخبروه بمهمتهم ؛ وطلبوا منه أن يغادر هو ومن آمن معه مكان إقامتهم ، فإن العذاب نازل بهؤلاء المجرمين بعد وقت قصير .

« قالوا يا لوط إنا رسل ربك ، فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك ، إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح ، أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد » .

ثم تتابع السورة الكريمة فى الربع الخامس(١) ، حديثها عن جانب من قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم ، فتحدثنا عن قصة شعيب ـ عليه السلام ـ مع قومه ، وكيف أنه قال لهم مقالة كل رسول لقومه « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .

ثم نهاهم بأسلوب رصين حكيم ، عن ارتكاب الفواحش التى كانت منتشرة فيهم ، وهى إنقاص الكيل والميزان ، وبخس الناس أشياءهم . . .

ولكنهم ـ كعادة السفهاء الطغاة ـ قابلوا نصائحه بالتهكم والاستخفاف والوعيد . . . فكانت النتيجة أن حل بهم عذاب الله الذى أهلكهم ، كما أهلك أمثالهم .

قال ـ تعالى ـ « ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود » .

ثم تسوق السورة بعد ذلك بإيجاز ، جانبا من قصة موسى مع فرعون وملئه ، الذين اتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد .

---

(١) الآيات من ٨٤ - ١٠٧

ثم تعقب على كل تلك القصص السابقة ، بتعقيب يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، وأنه — سبحانه — لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ... قال ـ تعالى ـ : « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب » ...

أما في الربع السادس[1] والأخير منها ، فنراها تبين بأسلوب قوى منذر ، أن الناس سيأتون يوم القيامة ، منهم الشقي ومنهم السعيد ، وأنه — سبحانه — سيوفى كل فريق منهم جزاءه غير منقوص .

ثم ترشد إلى مايوصل إلى السعادة، فتدعو إلى الاستقامة على أمر الله، وإلى عدم الركون إلى الظالمين ، وإلى إقامة الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، وإلى الصبر الجميل .

قال ـ تعالى ـ : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

ثم ختمت السورة الكريمة ببيان أن من أهم مقاصد ذكر قصص الأنبياء في القرآن الكريم ، تثبيت فؤاد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتقوية قلبه ، وتسليته عما أصابه ، وتبشيره بأن العاقبة له ولأتباعه .

قال ـ تعالى ـ : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السموات

---

(١) الآيات ص١٠٨ إلى آخر السورة .

والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون » .

٧ - أهم الموضوعات التي عنيت السورة الكريمة بالحديث عنها :

من استعراضنا لسورة هود ، ومن معرفة الفترة التي نزلت فيها ، نستطيع أن نقول : إن السورة الكريمة قد عنيت بالحديث عن موضوعات متنوعة من أهمها ما يأتى :

(أ) ترغيب الناس فى طاعة الله ، وتحذيرهم من معصيته ، وهذا المعنى نراه فى كثير من آيات سورة هود ، ومن ذلك :

قوله - تعالى - : « ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير ... » .

وقوله - تعالى - حكاية عن هود - عليه السلام - : « ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين ... » .

وقوله - تعالى - حكاية عن شعيب - عليه السلام - : « ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ .... » .

(ب) تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من قومه ، ومن مظاهر هذه التسلية ، أن السورة الكريمة قد اشتملت فى معظم آياتها على قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم . فقد ذكرت نواحى متنوعة من قصة نوح مع قومه ، ومن قصة هود مع قومه ، ومن قصة صالح مع قومه ، ومن قصة شعيب مع قومه ، ومن قصة لوط مع قومه ....

وقد تحدثت خلال كل قصة عن المسالك الخبيثة ، والمجادلات الباطلة ، التى اتبعها الطغاة مع أنبيائهم الذين جاءوا لسعادتهم وهدايتهم .

كما ختمت كل قصة من هذه القصص ، ببيان حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة المكذبين ..

وفى ذلك مافيه من التسلية للرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما لحقه من أذى ، وما أصابه من اضطهاد ، وما تعرض له من اعتداء عليه وعلى أصحابه .

وكأن ماورد فى هذه السورة من قصص طويل متنوع ، يقول للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن ما أصابك من قومك يامحمد ، قد أصاب الأنبياء السابقين من أقوامهم ، فاصبر كما صبروا ، فإنه « مايقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » .

(حـ) إقامة الأدلة على أن هذا القرآن من عند الله ، وليس من كلام البشر ..

فقد تحداهم هنا أن يأتوا بعشر سور من مثله فعجزوا ، ثم تحداهم فى موطن آخر أن يأتوا بسورة من مثله فما استطاعوا ، وساق لهم ـ على لسان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الكثير من أخبار الأولين ، ومن قصص الأنبياء مع أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن معاصرا لهؤلاء السابقين ، ولم يكن قارئا لأخبارهم ، فدل ذلك على أن هذا القرآن من عند الله ، وعلى أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ صادق فيما يبلغه عن ربه .

قال ـ تعالى ـ : « أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون » .

وقال ـ تعالى ـ : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ، إن العاقبة للمتقين » .

(د) بيان سنة من سنن الله التى لاتتخلف ، وهى أنه ـ سبحانه ـ لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم ؛ بإعراضهم عن الحق ، واتباعهم للهوى ، واستحقاقهم للعقوبة التى هى جزاء عادل لكل ظالم .

وهذا البيان نراه فى مواضع متعددة من السورة ، ومن ذلك قوله -تعالى- فى ختام الحديث عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم .

« ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء ، لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد . إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى وسعيد ..... » .

وبعد : فهذه تعريفات عن سورة هود ، رأينا أن نذكرها قبل البدء فى تفسيرها ، وأرجو أن يكون فى ذكرها ما يعطى القارىء صورة واضحة عن هذه السورة الكريمة .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المدينة المنورة فى ٢١ من صفر
سنة ١٤٠١هـ ٢٨/١٢/١٩٨٠م

محمد السيد طنطاوى

بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير

« الر كِتَابٌ أُحكِمَتْ آياتُه ثم فُصِّلتْ مِنْ لَدُنْ حكيمٍ خبيرٍ (١) أَلاَّ تعبدُوا إلاَّ اللهَ ، إنَّنِي لكُم منهُ نذيرٌ وبشيرٌ (٢) وأَنِ استَغفِرُو ربَّكُم ثمَّ توبُوا إليه يُمتعْكُم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مُسمًّى ويؤتِ كلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَه ، وإنْ تولّوا فإني أَخافُ عليكُم عذابَ يومٍ كَبِيرٍ (٣) إلى اللهِ مَرْجِعكُم وهو عَلَى كلِّ شيءٍ قديرٌ (٤) ألاَ إنَّهم يثْنُونَ صُدُورهم لِيَسْتَخْفُوا مِنهُ ، ألاَ حينَ يَسْتَغْشُونَ ثيابَهم يَعلَمُ ما يُسِرُّونَ وَمَا يُعلِنُونَ إنَّهُ عليمٌ بِذَاتِ الصدورِ (٥) .

سورة هود ـ عليه السلام ـ من السور التي افتتحت ببعض حروف التهجي؛ وقد سبق أن تكلمنا بشيء من التفصيل عند تفسيرنا لسور : البقرة وآل عمران ، والأعراف ، ويونس ، عن آراء العلماء في المراد بهذه الحروف المقطعة التي افتتحت بها بعض السور . . .

ورجحنا أن هذه الحروف المقطعة ، قد وردت في افتتاح بعض سور القرآن ، على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن .

فكأن الله ـ تعالى ـ يقول لأولئك المعارضين في أن القرآن من عند الله ـ تعالى ـ : ها كم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو من جنس ما تؤلفون به كلامكم ، ومنظوما من حروف هي من جنس الحروف الهجائية التي تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم في شك من كونه منزلا من عند الله فهاتوا مثله

وادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك ، أو هاتوا عشر سور من مثله ، أو هاتوا سورة واحدة .....

فلما عجزوا ـ وهم أهل الفصاحة والبيان ـ ثبت أن غيرهم أعجز ، وأن هذا القرآن من عند الله، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

وقوله : « أحكمت آياته » من الإحكام ـ بكسر الهمزة ـ وهذه المادة تستعمل فى اللغة لمعان متعددة ، ترجع إلى شىء واحد هو المنع . يقال : أحكم الأمر . أى : أتقنه ومنعه من الفساد . أى : منع نفسه ومنع الناس عما لا يليق . ويقال أحكم الفرس ، إذا جعل له حكمة تمنعه من الجموح والاضطراب .

وقوله : « ثم فصلت » من التفصيل ، بمعنى التوضيح والشرح للحقائق والمسائل المراد بيانها ، بحيث لا يبقى فيها اشتباه أو لبس .

والمعنى : هذا الكتاب الذى أنزلناه إليك يا محمد ، هو كتاب عظيم الشأن، جليل القدر ، فقد أحكم الله آياته إحكاما بديعا ، وأتقنها إتقانا معجزا ، بحيث لا يتطرق إليها خلل أو فساد . ثم فصل ـ سبحانه ـ هذه الآيات تفصيلا حكيما ، بأن أنزلها نجوما ، وجعلها سورا سورا ، مشتملة على ما يسعد الناس فى دنياهم وآخرتهم ، من شئون العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والآداب ، والأحكام .....

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : « أحكمت آياته » أى : نظمت نظما رصينا محكما ، بحيث لا يقع فيه نقض ولا خلل ، كالبناء المحكم المرصف ... وقيل : منعت من الفساد ، من قولهم : أحكمت الدابة ، إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجماح . قال جرير :

أبنى حنيفة أحكموا سفهاءكم إنى أخاف عليكم أن أغضبا

« ثم فصلت » كما تفصل القلائد بالفرائد ، ومن دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصائص ، أو جعلت فصولا سورة سورة ، وآية آية ، أو فرقت فى التنزيل ولم تنزل جملة واحدة ... »[1] .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٥٨

و « ثم » فى قوله - سبحانه - « ثم فصلت » للتراخى فى الرتبة كما هو شأنها فى عطف الجمل، لما فى التفصيل من الاهتمام لدى النفوس، لأن العقول ترتاح إلى التفصيل بعد الإجمال، والتوضيح بعد الإيجاز ...

وجملة « من لدن حكيم خبير » صفة أخرى للكتاب، وصف بها، لإظهار شرفه من حيث مصدره، بعد أن وصف بإحكام آياته وتفصيلها الدالين على علو مرتبته من حيث الذات أى: هذا الكتاب الذى أتقنت آياته إتقانا بديعا، وفصلت تفصيلا رصينا، ليس هو من عند أحد من الخلق، وإنما هو من عند الخالق الحكيم فى كل أقواله وأفعاله، الخبير بظواهر الأمور وبواطنها.

قال الشوكانى: وفى قوله « من لدن حكيم خبير » لف ونشر، لأن المعنى: أحكمها حكيم، وفصلها خبير، عالم بمواقع الأمور »[1].

وقوله: « ألا تعبدوا إلا الله » جملة تعليلية، أى: أنه - سبحانه - فعل مافعل من إحكام الكتاب وتفصيله وتنزيله من لدن حكيم خبير، لكى تخلصوا له العبادة والطاعة، وتتركوا عبادة غيره؛ لأن من أنزل هذا الكتاب المعجز، من حقه أن يفرد بالخضوع والاستعانة.

وقوله: « إننى لكم منه نذير وبشير » بيان لوظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

والضمير المجرور فى « منه » يعود على الله - تعالى -.

أى: عليكم - أيها الناس - أن تخلصوا لله - تعالى - العبادة والطاعة، فإنه - سبحانه - قد أرسلنى إليكم لكى أنذر الذين فسقوا عن أمره بسوء العاقبة، وأبشر الذين استجابوا لدعوته بحسن المثوبة.

وقدم - سبحانه - الإنذار على التبشير؛ لأن الخطاب موجه إلى الكافرين، الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى.

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٢ ص ٤٨٠.

قال بعضهم : « والجمع بين النذارة والبشارة ، لمقابلة ماتضمنته الجملة الأولى من طلب ترك عبادة غير الله ، بطريق النهى ، وطلب عبادة الله بطريق الاستثناء ، فالنذارة ترجع إلى الجزء الأول ، والبشارة ترجع إلى الجزء الثانى »(١) .

ثم بين ـ سبحانه ـ مايترتب على طاعته من خيرات فقال : « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله .... » .

والاستغفار طلب المغفرة والرحمة من الله ـ تعالى ـ .

والتوبة : الإقلاع عن كل مانهى الله ، مع التصميم على عدم العودة إلى ذلك فى المستقبل .

ويمتعكم : من الإمتاع ، وأصل الإمتاع الإطالة ، ومنه : أمتعنا الله بك . أى : أطال لنا بقاءك .

والآية الكريمة معطوفة على قوله ـ سبحانه ـ قبل ذلك : « ألا تعبدوا إلا الله ...... » .

والمعنى : وعليكم ـ أيها الناس ـ بعد أن نبذتم كل عبادة لغير الله ، أن تديموا طلب مغفرته ورحمته ، وأن تتوبوا إليه توبة نصوحا ، فإنكم إن فعلتم ذلك « يمتعكم » الله ـ تعالى ـ « متاعا حسنا » بأن يبدل خوفكم أمنا ، وفقركم غنى ، وشقاءكم سعادة ...

وقوله : « إلى أجل مسمى » أى : إلى نهاية حياتكم التى قدرها الله لكم فى هذه الدنيا .

وقوله : « ويؤت كل ذى فضل فضله » أى : ويعط كل صاحب عمل صالح جزاء عمله .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ج ١١ ص ٣١٥ .

فالمراد بالفضل الأول : العمل الصالح . والمراد بالفضل الثانى الثواب الجزيل من الله — تعالى — .

فالجملة الكريمة ، وعد كريم من الله ـ تعالى ـ لكل من آمن وعمل صالحا .

وجملة « ثم توبوا إليه » معطوفة على استغفروا . و « ثم » هنا على بابها من التراخى ، لأن الإنسان يستغفر أولا ربه من الذنوب ، ثم يتوب إليه التوبة الصادقة النصوح التى لا رجعة معها إلى ارتكاب الذنوب مرة أخرى .

ووصف المتاع بالحسن ، ليدل على أنه عطاء ليس مشوبا بالمكدرات والمنغصات التى تقلق الإنسان فى دنياه ، وإنما هو عطاء يجعل المؤمن يتمتع بنعم الله التى أسبغها عليه ، مع المداومة على شكره ـ سبحانه ـ على هذه النعم .

قال ـ تعالى ـ « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

ثم حذر ـ سبحانه ـ من الإعراض عن طاعته فقال : « وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير » .

أى : ذكرهم أيها الرسول الكريم بأن فى إخلاصهم العبادة لله ، وفى طاعتهم له ، سعادتهم الدنيوية والآخروية ، وفى إعراضهم عن ذلك شقاؤهم وحلول العذاب بهم .

أى : إن تتولوا ـ أيها الناس ـ عن الحق الذى جئتكم به ، فإنى أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، الذى هو عذاب كبير هوله ، عظيم وقعه ، كما أخاف عليكم عذاب الدنيا .

فتنكير « يوم » للتهويل والتعميم ، حتى يشمل عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، حيث إنهم كانوا ينكرون البعث والحساب ، فتخويفهم بالعذابين أزجر لنفوسهم القاسية ، وقلوبهم العاتية .

وفى وصفه بالكبر ، زيادة ـ أيضا ـ فى تهويله وشدته ، حتى يثوبوا إلى رشدهم ، ويقلعوا عن غيهم وعنادهم .

وقوله - سبحانه - (إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير) تحذير آخر لهم، إثر التحذير من الإعراض عما جاءهم به نبيهم - صلى الله عليه وسلم -.

والمرجع: مصدر ميمي بمعنى الرجوع الذي لا انفكاك لهم منه، ولا محيد لهم عنه.

أي: إلى الله - تعالى - وحده رجوعكم مهما طالت حياتكم، ليحاسبكم على أعمالكم، ويجازيكم عليها بما تستحقونه من جزاء، وهو - سبحانه - على كل شيء قدير، لا يعجزه أمر، ولا يحول بينه وبين نفاذ إرادته حائل:

وما دام الأمر كذلك، فأخلصوا لله العبادة، واستغفروه ثم توبوا إليه لتظفروا بالسعادة العاجلة والآجلة.

ثم حكى - سبحانه - جانبا من جهالات المنحرفين عن الحق، ومن أوهامهم الباطلة، فقال - تعالى -:

«ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون، إنه عليم بذات الصدور».

وقوله: «يثنون» من الثني بمعنى الطي والستر. يقال: ثنيت الثوب إذا طويته على ما فيه من الأشياء المستورة.

وثني الصدور: إمالتها وطأطأتها وحنيها بحيث تكون القامة غير مستقيمة.

والاستخفاء: محاولة الإختفاء عن الأعين ومنه قوله - تعالى - «يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ......» (1)

وقوله: «يستغشون ثيابهم ...» أي: يتدثرون ويتغطون بها، مبالغة في الاستخفاء عن الأعين. فالسين والتاء فيه للتأكيد، كما في قوله - تعالى - «واستغشوا ثيابهم ....» أي: جعلوها كالغشاء عليهم.

---

(1) سورة النساء الآية ١٠٨

وقد ذكر بعض المفسرين فى سبب نزول هذه الآية روايات منها: أنه كان الرجل من الكفار يدخل بيته ، ويرخى ستره ، ويحنى ظهره ، ويتغشى بثوبه ثم يقول : هل يعلم الله ما فى قلبى فنزلت هذه الآية .

وقيل : نزلت فى المنافقين ، كان أحدهم إذا مر بالنبى - صلى الله عليه وسلم - ثنى صدره . وتغشى بثوبه لئلا يراه ،

وقيل نزلت فى الأخنس بن شريق ، وكان رجلا حلو المنطق ، حسن السياق للحديث ، يظهر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - المحبة ، ويضمر فى قلبه ما يضادها . . . ، (١)

وعلى أية حال فإن الآية الكريمة تصور تصويرا بديعا جهالات بعض الضالين بعلم الله - تعالى - المحيط بكل شىء ، كما تصور تصويرا دقيقا أوضاعهم الحسية حين يأوون إلى فراشهم ، وحين يلتقون بالنبى - صلى الله عليه وسلم -

والضمير المجرور فى قوله « منه » يعود إلى الله -- تعالى -- وعليه يكون المعنى ألا إن هؤلاء المشركين يلوون صدورهم عن الحق الذى جاءهم به نبيهم - صلى الله عليه وسلم - توهما منهم أن فعلهم هذا يخفى على الله - تعالى -

ومنهم من يرى أن الضمير فى قوله « منه » يعود إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وعليه يكون المعنى :

ألا إن هؤلاء المشركين يعرضون عن لقاء النبى - صلى الله عليه وسلم - ويطأطئون رءوسهم عند رؤيته ، ليستخفوا منه ، حتى لا يؤثر فيهم بسحر بيانه

ومع أن كلا القولين له وجاهته وله من سبب النزول ما يؤيده ، إلا أننا نميل إلى كون الضمير يعود على الله - تعالى - لأن قوله - تعالى - بعد ذلك « يعلم ما يسرون وما يعلنون » يؤيد عودة الضمير إليـــه - سبحانه - إذ علم السر والعلن مرده إليه وحده .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١١ ص ١٨٥

وافتتحت الآية الكريمة بحرف التنبيه « ألا » وجيء به مرة أخرى فى قوله « ألا حين يستغشون ثيابهم . . . » للاهتمام بمضمون الكلام ، وللفت أنظار السامعين إلى ما بلغه هؤلاء الضالون من جهل وانطماس بصيرة .

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه لا يخفى عليه شيء من أحوالهم فقال : « ألا حين يستغشون ثيابهم ، يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور » .

أى : ألا يعلم هؤلاء الجاهلون أنهم حين يأوون إلى فراشهم ، ويتدثرون بثيابهم ، يعلم الله ـ تعالى ـ ما يسرونه فى قلوبهم من أفكار ، وما يعلنونه بأفواههم من أقوال ، لأنه ـ سبحانه ـ محيط بما تضمره النفوس من خفايا ، وما يدور بها من أسرار .

وجملة « إنه عليم بذات الصدور » تعليلية لتأكيد ما قبلها من علمه ـ سبحانه بالسر والعلن . والمراد بذات الصدور : الأسرار المستكنة فيها .

هذا ، وقد ذكر ابن كثير رواية أخرى فى سبب نزول هذه الآية فقال : قال ابن عباس :

كانوا يكرهون أن يستقبلوا السماء بفروجهم وحال وقاعهم ، فأنزل الله هذه الآية رواه البخارى من حديث ابن جريج ...

وفى لفظ آخر له قال ابن عباس : أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا فيفضوا إلى السماء ، وأن يجامعوا نساءهم فيفضوا إلى السماء ، فنزل ذلك فيهم . . . » (١)

وظاهر من هذا الكلام المنقول عن ابن عباس أنها نزلت فى شأن جماعة من المسلمين هذا شأنهم ، ولعل مراده أن الآية تنطبق على صنيعهم وليس فعلهم هو سبب نزولها ، لأن الآية مسوقه للتوبيخ والذم ، والذين يستحقون ذلك هم أولئك المشركون وأشباههم الذين أعرضوا عن الحق ، وجهلوا صفات الله

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣٨

ـ تعالى ـ قال الجمل بعد أن ذكر قول ابن عباس : وتنزيل الآية على هـــذا القول بعيد جـدا ، لأن الاستحياء من الجماع وقضاء الحاجة فى حال كشف العورة إلى جهة السماء ، أمر مستحسن شرعا ، فكيف يلام عليه فاعله ويذم بمقتضى سياق الآية ، [1]

وإذا فالذى يستدعيه السياق ويقتضيه ربط الآيات ، كون الآية فى ذم المشركين ومن على شاكلتهم من المنحرفين عن الطريق المستقيم

ثم ساقه ـ سبحانه ـ ما يدل على كمال قدرته ، وسابغ فضله ، وشمول علمه فقال ـ تعالى ـ :

« وماَ مِنْ دابَّةٍ فى الأرضِ إلا على الله رزقُها ، ويعلمُ مستقرَّها ومُستودَعها ، كلٌّ فى كتابٍ مبينٍ (٦) وهو الذى خلقَ السمواتِ والأرضَ فى ستَّةِ أيامٍ ، وكانَ عرشُه على الماءِ ليبلُوَكم أيكم أحسنُ عملاً ، ولئنْ قلتَ إنكم مبعوثونَ من بعدِ الموت ، ليقولَن الذينَ كفرُوا ، إنْ هذَا إلا سحرٌ مبينٌ (٧) .

قال الآلوسى ماملخصه : الدابة إسم لكل حيوان ذى روح ، ذكرا كان أو أنثى ، عاقلا أو غيره ، مأخوذ من الدبيب وهو فى الأصل المشى الخفيف ... واختصت فى العرف بذوات القوائم الأربع .

والمراد بها هنا المعنى اللغوى باتفاق المفسرين ... » [2]

قال ـ تعالى ـ « والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ،

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٨٠

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٢

ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير [١]

والمراد برزقها : طعامها وغذاؤها الذى به قوام حياتها .

والمعنى : وما من حيوان يدب على الأرض ، إلا على الله - تعالى - غذاؤه ومعاشه ، فضلا منه - سبحانه - وكرما على مخلوقاته .

وقدم - سبحانه - الجار والمجرور « على الله » على متعلقة وهو « رزقها » لإفاده القصر . أى على الله وحده لا على غيره رزقها ومعاشها .

وكون رزقها ومعاشها على الله - تعالى - لاينافى الأخذبالأسباب ،والسعى فى سبيل الحصول على وسائل العيش ، لأنه - سبحانه - وإن كان قد تكفل بأرزاق خلقه ، إلا أنه أمرهم بالاجتهاد فى استعمال كافة الوسائل المشروعة من أجل الحصول على مايغنيهم ويسد حاجتهم .

قال - تعالى - : هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه وإليه النشور » [٢]

وجملة « ويعلم مستقرها ومستودعها » بيان لشمول علمه - سبحانه - لكل شيء فى هذا الكون .

والمستقر والمستودع : إسما مكان لمحل الاستقراروالإيداع للدابة فى هذا الكون،سواء أكان ذلك فى الأصلاب أم فىالأرحام أم فى القبورأم فى غيرها

قال الشوكانى: أخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، عن ابن عباس فى قوله « ويعلم مستقرها » قال : حيث تأوى . « ومستودعها » قال : حيث تموت .

---

(١) سورة النور الآيه ٤٥
(٢) سورة الملك الآيه ١٥

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن ابن مسعود قال : مستقرها فى الأرحام ومستودعها حيث تموت .

قال : ويؤيد هذا التفسير الذى ذهب اليه ابن مسعود ما أخرجه الترمذى الحكيم فى نوادر الأصول والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : إذا كان أجل أحدكم بأرض ، أتيحت له اليها حاجة ، حتى إذا بلغ أقصى أثره منها فيقبض . فتقول الأرض يوم القيامة : هذا ما استودعتنى »[٢]

وقوله : « كل فى كتاب مبين » تذييل قصد به بيان دقة علمه ـ سبحانه ـ بعد بيان شمول هذا العلم وإحاطته بكل شىء .

والتنوين فى « كل » هو تنوين العوض . أى : كل ما يتعلق برزق هذه الدواب ومستقرها ومستودعها مسجل فى كتاب مبين ، أى : فى كتاب واضح جلى ظاهر فى علم الله — تعالى — ، بحيث لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ .

ثم ساق ـ سبحانه ـ ما يشهد بعظيم قدرته فقال ـ تعالى ـ : « وهو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام . . . »

والأيام جمع يوم ، والمراد به هنا مطلق الوقت الذى لا يعلم مقداره إلا الله ـ تعالى ـ .

أى : وهو ـ سبحانه ـ الذى أنشأ السموات والارض وما بينهما ، على غير مثال سابق ، فى ستة أيام من أيامه — تعالى — ، التى لا يعلم مقدار زمانها إلا هو .

وقيل : أنشأهن فى مقدار ستة أيام من أيام الدنيا .

قال سعيد بن جبير ـ رضى الله عنه ـ : كان قادرا على خلق السموات

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٢ ص ٤٨٤

والأرض وما بينهما فى لمحة ولحظة . فخلقهن فى ستة أيام ، تعليما لعباده التثبت والتأنى فى الأمور .

وقد جاءت آيات تدل على أنه - سبحانه - خلق الأرض فى يومين ، وخلق السموات فى يومين ، وخلق ما بينهما فى يومين ، وهذه الآيات هى قوله - تعالى -: « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين

ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها . . . »(١)

وجملة « وكان عرشه على الماء » اعتراضية بين قوله « وخلق السموات والأرض » وبين « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » ويجوز أن تكون حالية من فاعل خلق وهو الله - تعالى - وعرش الله - تعالى - من الألفاظ التى لا يعلمها البشر إلا بالاسم . وقد جاء ذكر العرش فى القرآن الكريم إحدى وعشرين مرة .

ونحن مكلفون بأن نؤمن بأن له - سبحانه - عرشا ، أما كيفيته فنفوض علمها إليه - تعالى - .

والمعنى : أن الله - تعالى - خلق السموات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه قبل خلقهما ليس تحته شىء سوى الماء .

قالوا : وفى ذلك دليل على أن العرش والماء كانا موجودين قبل وجود السموات والأرض .

قال القرطبى : قوله : « وكان عرشه على الماء » بين - سبحانه - أن خلق العرش والماء ، كان قبل خلق الأرض والسماء . . . .

---

(١) سورة فصلت الآيات من ٩ - ١٢

ثم قال : وروى البخارى عن عمران بن حصين قال كنت عند النبى - صلى الله عليه وسلم - إذ جاءه قوم من بنى تميم فقال : « اقبلوا البشرى يابنى تميم » قالوا : بشرتنا فأعطنا . فدخل ناس من أهل اليمن فقال : اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم ، قالوا : قبلنا . جئنا لنتفقه فى الدين ، ولنسألك عن هذا الدين ونسألك عن أول هذا الأمر .

قال : « كان الله ولم يكن شىء غيره ، وكان عرشه على الماء . ثم خلق السموات والأرض ، وكتب فى الذكر كل شىء »(١)

وقال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث وغيره : وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، وكان عرشه على الماء » .

وروى الإمام أحمد عن لقيط بن عامر العقيلى قال : قلت يا رسول الله ، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان فى عماء ، ماتحته هواء ، ومافوقه هواء ، ثم خلق العرش بعد ذلك(٢) والعماء : السحاب الرقيق ، أى فوق سحاب مدبرا له ، وعاليا عليه . والسحاب ليس تحته سوى الهواء ، وليس فوقه سوى الهواء . والمراد أنه ليس مع الله - تعالى - شىء آخر .

وقوله - سبحانه - « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » جملة تعليلية . ويبلوكم من الابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان .

أى : خلق ماخلق من السموات والأرض ومافيهما من كائنات ، ورتب فيهما جميع ماتحتاجون إليه من أسباب معاشكم ، ليعاملكم معاملة من يختبر غيره ، ليتميز المحسن من المسىء ، والمطيع من العاصى ، فيجازى المحسنين والطائعين بما يستحقون من ثواب ، ويعاقب المسيئين والعاصين بما هم أهله من عقاب .

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٨

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٤٠ طبعة الشعب .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : كيف قيل : « أيكم أحسن عملا » وأعمال المؤمنين هي التي تتفاوت إلى حسن وأحسن ، فأما أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح ؟ قلت : الذين هم أحسن عملا هم المتقون وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ماهو مقصود الله - تعالى - من عباده ، فخصهم بالذكر . واطرح ذكر من وراءهم ، تشريفا لهم ؛ وتنبيها على مكانهم منه ، وليكون ذلك لطفا للسامعين ، وترغيبا فى حيازة فضلهم »[1] .

ثم ختم — سبحانه — الآية الكريمة ببيان موقف الكافرين من البعث والحساب فقال : « ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » .

أي ، ولئن قلت يامحمد لهؤلاء الكافرين الذين أرسلك الله لإخراجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، لئن قلت لهم « إنكم مبعوثون » يوم القيامة « من بعد الموت » الذي سيدركم فى هذه الدنيا عند نهاية آجالكم « ليقولن » لك هؤلاء الكافرون على سبيل الانكار والتهكم ما هذا الذى تقوله يا محمد « إلا سحر مبين » أي : إلا سحر واضح جلي ظاهر لا لبس فيه ولا غموض.

وقرأ حمزة والكسائي وخلف «إلا ساحر مبين» فتكون الإشارة بقوله « هذا » إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أي : أنه فى زعمهم يقول كلاما ليسحرهم به ، وليصرفهم عما كان عليه آباؤهم وأجدادهم .

ثم بين — سبحانه — بعد ذلك لونا من ألوان غرور المشركين ، كما بين أحوال بعض الناس فى حالتي السراء والضراء فقال — تعالى — :

« وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ، أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨)

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٢ ص ٢٦٠

ولئنْ أذقنا الإنسانَ منا رحمةً ثم نزعناها منه ، إنّه ليؤوسٌ كفورٌ (٩) ولئن أذقناهُ نعماءَ بعد ضراءَ مسَّتْهُ ليقولَنّ ذهبَ السيئاتُ عنّي ، إنّه فَرِحٌ فخورٌ (١٠) إلا الذينَ صبرُوا وعملُوا الصَّالحاتِ أولئكَ لهُم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ (١١) »

قال القرطبي ماملخصه : الأمة : اسم مشترك يقال على ثمانية أوجه . فالأمة تكون الجماعة ، كقوله - تعالى - : « وجد عليه أمة من الناس ... » ، والأمة : أيضا أتباع الأنبياء عليهم السلام ، والأمة : الرجل الجامع للخير الذي يقتدى به ، لقوله - تعالى - « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا » ، والأمة : الدين والملة ، كقوله - تعالى - : « إنا وجدنا آباءنا على أمة » ، والأمة : الحين والزمان كقوله - تعالى - « وادكر بعد أمة » ، والأمة : القامة ، وهو طول الإنسان وارتفاعه ، يقال من ذلك : فلان حسن الأمة ، أى القامة والأمة : الرجل المنفرد بدينه وحده ، لايشركه فيه أحد . قال - صلى الله عليه وسلم : يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده » والأمة : الام ، يقال : هذه أمة زيد ، أى أم زيد ... »(١) والمراد بالامة هنا : الحين والزمان والمدة .

والمعنى : ولئن أخرنا - بفضلنا وكرمنا - عن هؤلاء المشركين « العذاب » المقتضى لجحودهم لآياتنا ، وتكذيبهم لرسلنا « إلى أمة معدودة » أى : إلى وقت معين من الزمان على حسب إرادتنا وحكمتنا ؛ « ليقولن » على سبيل التهكم والاستهزاء ، واستعجال العذاب ، « مايحبسه » أى : ما الذى جعل هذا العذاب الذى حذرنا منه محمد - صلى الله عليه وسلم - محبوسا عنا ، وغير نازل بنا ...

ولاشك أن قولهم هذا ، يدل على بلوغهم أقصى درجات الجهالة والطغيان ،

---

(١) تفسير القرطبى ج ٩ ص

حيث قابلوا رحمة الله – تعالى – المتمثلة هنا فى تأخير العذاب عنهم ، بالاستهزاء والاستعجال ، ولذا رد الله – تعالى – عليهم بقوله : « ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » أى : ألا إن ذلك العذاب الذى استعجلوه واستخفوا به ، يوم ينزل بهم ، لن يصرفه عنهم صارف ، ولن يدفعه عنهم دافع ، بل سيحيط بهم من كل جانب ، بسبب استهزائهم به وإعراضهم عن حذرهم منه .

واللام فى قوله « ولئن أخرنا عنهم العذاب » موطئة للقسم ، وجواب القسم قوله « ليقولن ما يحبسه » .

والأقرب إلى سياق الآية أن يكون المراد بالعذاب هنا : عذاب الاستئصال الدنيوى ، إذ هو الذى استعجلوا نزوله ، أما عذاب الآخرة فقد كانوا منكرين له أصلا ، كما حكى عنهم – سبحانه – فى الآية السابقة فى قوله : « ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين » .

قال الآلوسى : « والظاهر أن المراد العذاب الشامل للكفرة ، ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : لما نزل « اقترب للناس حسابهم » قال ناس : إن الساعة قد اقتربت فتناهوا ، فتناهى القوم قليلا ، ثم عادوا إلى أعمالهم السوء ، فأنزل الله – تعالى – : « أتى أمر الله فلا تستعجلوه » فقال أناس من أهل الضلالة : هذا أمر الله – تعالى – قد أتى ، فتناهى القوم ثم عادوا إلى مكرهم مكر السوء ، فأنزل الله هذه الآية »[1] .

وفى قوله – سبحانه « إلى أمة معدودة » إيماء إلى أن تأخير العذاب عنهم ليس لمدة طويلة ، لأن ما يحصره العد جرت العادة فى أساليب العرب أن يكون قليلا ، ويؤيد ذلك أنه بعد فترة قليلة من الزمان نزل بهم فى غزوة بدر القتل الذى أهلك صناديدهم ، والأسر الذى أذل كبرياءهم .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٤ .

وافتتحت جملة « ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم » بأداة الاستفتاح « ألا » ، للاهتمام بمضمون الخبر ، وللإشارة إلى تحقيقه ، وإدخال الروع فى قلوبهم .

وعبر بالماضى « حاق » مع أنه لم ينزل بهم بعد ، للإشارة ، إلى انه آت لاريب فيه ، عندما يأذن الله - تعالى - بذلك .

ثم بين - سبحانه - جانبا من طبيعة بنى آدم إلا من عصم الله فقال - تعالى - « ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور... »

والمراد بالإنسان هنا الجنس على أرجح الأقوال ، فيشمل المسلم وغيره ، بدليل الاستثناء الآتى بعد ذلك فى قوله « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات » .

قال الفخر الرازى ماملخصه : المراد بالإنسان هنا مطلق الإنسان ويدل عليه وجوه :

الأول : أنه - تعالى - استثنى منه قوله « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات » والاستثناء يخرج من الكلام مالولاه لدخل ، فثبت أن الإنسان المذكور فى هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر .

الثانى : أن هذه الآية موافقة على هذا التقرير لقوله - سبحانه - : والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملو الصالحات ...

الثالث : أن مزاج الإنسان مجبول على الضعف والعجز . قال ابن جريج فى تفسير هذه الآية : يابن آدم إذا نزلت بك نعمة من الله فأنت كفور ، فإذا نزعت منك فيؤوس قنوط »[1] .

وقيل المراد بالإنسان هنا جنس الكفار فقط ، لأن هذه الأوصاف تناسبهم وحدهم .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ١٩٠ طبعة عبد الرحمن محمد .

والمراد بالرحمة هنا : رحمة الدنيا، وأطلقت على أثرها وهو النعمة كالصحة والغنى والأمان وما يشبه ذلك من ألوان النعم .

واليئوس والكفور : صيغتا مبالغة للشخص الكثير اليأس والقنوط ، الشديد الجحود لنعم الله — تعالى — يقال: يئس من الشيء ييأس ، إذا قنط منه.

والمعنى : ولئن منحنا الإنسان — بفضلنا وكرمنا — بعض نعمنا ، كالصحة والغنى والسلطان والأمان « ثم نزعناها منه » أي : ثم سلبناها منه ، لأن حكمتنا تقتضي ذلك .

« إنه » في هذه الحالة « ليئوس كفور » أي : لشديد اليأس والقنوط من أن يرجع إليه ماسلب منه أو مثله ، ولكثير الكفران والجحود لما سبق أن تقلب فيه من نعم ومنن .

قال الشوكاني : وفي التعبير بالذوق مايدل على أنه يكون منه ذلك عند سلب أدنى نعمة ينعم الله بها عليه ؛ لأن الإذاقة والذوق أقل مايوجد به الطعم »[1] .

وفي قوله « ثم نزعناها منه » إشارة إلى شدة تعلقه بهذه النعم ، وحرصه على بقائها معه .

وجملة « إنه ليئوس كفور » جواب القسم ، وأكدت بأن وباللام ، لقصد تحقيق مضمونها ، وأنه حقيقة ثابتة .

وهي تصوير بليغ صادق لما يعتري نفس هذا الإنسان عندما تسلب منه النعمة بعد أن ذاقها ، فهو — لقلة إيمانه وضعف ثقته بربه — قد فقد كل أمل في عودة هذه النعمة إليه ، ولكأن هذه النعمة التي سلبت منه لم يرها قبل ذلك .

ثم بين — سبحانه — حالة هذا الإنسان اليئوس الكفور ، عندما تأتيه

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٤٨٥ .

سرا ء بعد الضراء فقال : «ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ، ليقولن ذهب السيئات عنى ، إنه لفرح فخور » .

والنعماء : النعمة التى يظهر أثرها على صاحبها ، واختير لفظ النعماء لمقابلته للضراء .

والضراء : مايصيب الإنسان من مصائب يظهر أثرها السىء عليه .

والمراد بالسيئات : الأضرار التى لحقته كالفقر والمرض .

والمعنى: ولئن أذقنا هذا الإنسان اليؤوس الكفور «نعماء بعد ضراء مسته» كصحة بعد مرض ، وغنى بعد فقر ، وأمن بعد خوف ، ونجاح بعد فشل . . .

« ليقولن ذهب السيئات عنى » أى : ليقولن فى هذه الحالة الجديدة ببطر وأشر ، وغرور وتكبر ، لقد ولت المصائب عنى الأدبار ، ولن تعود إلى .

وعبر — سبحانه — فى جانب الضراء بالمس ؛ للإشارة إلى أن الإصابة بها أخف مما تذوقه من نعماء ، وأن لطف الله شامل لعباده فى كل الأحوال .

وجملة « إنه لفرح فخور » جواب القسم .

أى : إنه لشديد الفرح والبطر بالنعمة ، كثير التباهى والتفاخر بما أعطى منها ، مشغول بذلك عن القيام بما يجب عليه نحو خالقه من شكر وثناء عليه — سبحانه — .

وإنها — أيضا — لصورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر ، الذى يعيش فى لحظته الحاضرة ، فلا يتذكر فيما مضى ، ولا يتفكر فيما سيكون عليه حاله بعد الموت ، ولا يعتبر بتقلبات الأيام، فهو يئوس كفور إذا نزعت منه النعمة ، وهو بطر فخور إذا عادت إليه ، وهذا من أسوأ ماتصاب به النفس الإنسانية من أخلاق مرذولة .

وقوله : « إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ... » استثناء من هؤلاء الناس الذين لا يصبرون عند الشدة ، ولا يشكرون عند الرخاء .

أى : إلا الذين صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة ، وعملوا فى الحالتين الأعمال الصالحات التى ترضى الله — تعالى — .

« أولئك » الموصوفون بذلك « لهم » من الله — تعالى — « مغفرة » عظيمة تمسح ذنوبهم « وأجر كبير » منه — سبحانه — لهم . جزاء صبرهم الجميل ، وعملهم الصالح .

وفى الصحيحين أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « والذى نفسى بيده ، لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وليس ذلك لأحد غير المؤمن » .

ثم بين — سبحانه — بعض أقوال المشركين ، التى كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يضيق بها صدره ، وتحزن منها نفسه ، فقال - تعالى - :

« فلعلَّكَ تاركٌ بعضَ ما يوحَى إليكَ وضائِقٌ به صَدْرُكَ ، أنْ يقولوا لولاَ أُنزِلَ إليه كنزٌ أو جاء معَه ملكٌ ، إنما أنتَ نذيرٌ ، واللهُ على كلِّ شىءٍ وكيلٌ (١٢) » .

قال الفخر الرازى - رحمه الله - : روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن رؤساء مكة قالوا يا محمد ، اجعل لنا جبال مكة ذهبا إن كنت رسولا ، وقال آخرون : ائتنا بالملائكة يشهدون بنبوتك . فقال : لا أقدر على ذلك ، فنزلت هذه الآية » [1] .

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازى جـ ١٧ ص ١٩٢ طبعة عبد الرحمن محمد سنة ١٣٥٧ هـ .

ولفظ « لعل » — كما يقول الآلوسى — للترجى ، وهو يقتضى التوقع ، ولا يلزم من توقع الشىء وقوعه ولا ترجح وقوعه ، لجواز أن يوجد ما يمنع منه ، فلا يشكل بأن توقع ترك التبليغ منه — صلى الله عليه وسلم — مما لا يليق بمقام النبوة ، لأن المانع منه هنا ثبوت عصمته — صلى الله عليه وسلم — عن كتم شىء أمر بتبليغه .... والمقصود بهذا الأسلوب هنا تحريضه — صلى الله عليه وسلم — وتهييج داعيته لأداء الرسالة ، ويقال نحو ذلك فى كل توقع نظير هذا التوقع »[1] .

و« تارك » اسم فاعل من الفعل ترك . و« ضائق » اسم فاعل من الفعل ضاق ، وهو معطوف على « تارك » .

والمراد ببعض ما يوحى إليه — صلى الله عليه وسلم — فى قوله — سبحانه — « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك » : ما نزل عليه — صلى الله عليه وسلم — من قرآن فيه استهزاء بآلهتهم ، وتسفيه لعقولهم التى استساغت أن تشرك مع الله — تعالى — فى عبادتها آلهة أخرى .

والضمير المجرور فى قوله — سبحانه — « وضائق به صدرك » ، يعود إلى البعض الموحى به ، وقيل يعود للتبليغ ، وقيل للتكذيب .

وجملة « أن يقولوا » فى محل نصب على أنها مفعول لأجله ، أى : كراهة أو خشية أن يقولوا .

والكنز : يطلق على المال الكثير المجموع بعض إلى بعض سواء أكان فى بطن الأرض أم على ظهرها ، ومرادهم بإنزاله هنا : أن ينزل على الرسول — صلى الله عليه وسلم — من السماء مال كثير يغنيه هو وأصحابه ، ويجعلهم فى رغد من العيش ، بدل ما يبدو على بعضهم من فقر وفاقة ...

والمعنى : ليس خافيا علينا — أيها الرسول الكريم — ما يفعله المشركون معك ، من تكذيب لدعوتك ، ومن جحود لرسالتك ، ومن مطالب متعنتة يطلبونها منك ...

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٨ . طبعة منير الدمشقى .

ليس خافيا علينا شيئا من ذلك ، ولعلك إزاء مسالكهم القبيحة هذه ، تارك تبليغ بعض ما يوحى إليك ، وهو ما يثير غضبهم ، وضائق صدرك بهذا التبليغ ، كراهة تكذيبهم لوحى الله ، واستهزائهم بدعوتك ، وقولهم لك على سبيل التعنت : هلا أنزل إليك من السماء كنز تستغنى به وتغنى أتباعك ، وهلا كان معك ملك يصاحبك فى دعوتك ، ويشهد أمامنا بصدقك . ويؤيدك فى تحصيل مقصودك ...

لا - أيها الرسول الكريم - لاتترك شيئا من تبليغ ماأمرك الله بتبليغه لهؤلاء المشركين ، ولا يضق صدرك بأفعالهم الذميمة ، وبأقوالهم الباطلة ، بل واصل دعوتك لهم إلى طريق الحق ، فما عليك إلا الإنذار ، أما نحن فإلينا إيابهم ، وعلينا حسابهم .

وعبر - سبحانه - عن تأثر الرسول - صلى الله عليه وسلم - من مواقفهم المتعنتة باسم الفاعل « ضائق » لا بالصفة المشبهة « ضيق » ، لمراعاة المقابل وهو قوله « تارك » ، والإشارة إلى أن هذا الضيق مما يعرض له - صلى الله عليه وسلم - أحيانا ، وليس صفة ملازمة له ، لأن اسم الفاعل يقتضى الحدوث والانقطاع ، بخلاف الصفة المشبهة فتقتضى الثبات والدوام .

وأبرز - سبحانه - هنا صفة الإنذار للرسول - صلى الله عليه وسلم - مع أن وظيفته الإنذار والتبشير ، لأن المقام هنا يستوجب ذلك ، إذ أن هؤلاء المشركين قد تجاوزوا كل حد فى الإساءة إليه - صلى الله عليه وسلم - .

وقوله - سبحانه - « والله على كل شىء وكيل » تذييل قصد به زيادة تثبيته وتحريض على المضى فى تبليغ دعوته .

أى : سر فى طريقك - أيها الرسول الكريم - غير مبال بما يصدر عنهم من مضايقات لك ، والله - تعالى - حافظ لأحوالك وأحوالهم ، وسيجازيهم بالجزاء الذى يتناسب مع جرائمهم وكفرهم .

والمتأمل فى هذه الآية الكريمة يراها تعبر أكمل تعبير عن الفترة الحرجة التى نزلت فيها هذه السورة الكريمة ، فقد سبق أن قلنا عند التعريف بها ، إنها نزلت فى الفترة التى أعقبت وفاة النصيرين الكبيرين للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهما أبو طالب وخديجة ـ رضى الله عنها ـ وكانت هذه الفترة من أشق الفترات على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، حيث تكاثر فيها إيذاء المشركين له ولأصحابه ...

فأنت ترى أن هذه الآية الكريمة تحث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الثبات والصبر ، وعلى تبلغ مايوحى إليه ، مع عدم المبالاة بما يصنعه المشركون فى طريقه من عقبات . . .

هذا ، وقد سبق أن بينا عند التعريف بهذه السورة ـ أيضا ـ ، أن من العلماء من يرى أن هذه الآية مدنية ، ولعلك معى ـ أيها القارىء الكريم ـ فى أنه لا يوجد أى دليل نقلى أو عقلى يؤيد ذلك ، بل الذى تؤيده الأدلة ويؤيده سبب النزول أن الآية مكية كبقية السورة .

وهناك آيات أخرى مكية تشبه هذه الآية فى أسلوبها وموضوعها ، ومن هذه الآيات قوله ـ تعالى ـ : « وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها .... »[1] .

ثم حكى ـ سبحانه ـ بعد ذلك زعما آخر من مزاعمهم الكثيرة ، وهو دعواهم أن القرآن مفترى ، وتحداهم أن يأتوا بعشر سور من أمثال هذا القرآن المفترى فى زعمهم ، فقال ـ تعالى ـ :

« أم يقولُونَ افتراهُ ، قل فأتُوا بعشرِ سُوَرٍ مثله مفتريات ٍ ، وادعُوا

---

(١) سورة الفرقان الآيتان ٧، ٨ .

مَن استطعتُم من دونِ الله إنْ كنتُم صادقينَ (١٣) فإنْ لم يستجيبُوا لكم فاعلمُوا أنمـا أُنزِلَ بِعِـلمِ اللهِ ، وأن لاَ إلَه إلا هُوَ فهلْ أنتم مسلِمون (١٤) » .

و « أم » هنا منقطعة بمعنى بل التى للإضراب، وهو انتقال المتكلم من غرض إلى آخر والافتراء : الكذب المتعمد الذى لا توجد أدنى شبهة لقائله .

والمعنى : إن هؤلاء المشركين لم يكتفوا بما طلبوه منك يا محمد ، بل تجاوزوا ذلك إلى ما هو أشـد جرما ، وهو قولهم إنك افتريت القرآن الكريم ، واخترعته من عند نفسك .

وقوله : « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من من دون الله .... » أمر من الله ـ تعالى ـ لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم ، ويكبت نفوسهم .

أى : قل لهم يا محمد على سبيل التحدى : إن كان الأمر زعمون من أنى قد افتريت هذا القرآن ، فأنا واحد منكم وبشر مثلكم ، فهاتوا أنتم عشر سور مختلقات من عند أنفسكم ، تشبه ما جئت به فى حسن النظم ، وبراعة الأسلوب، وحكمة المعنى ، وادعوا لمعاونتكم فى بلوغ هذا الأمر كل من تتوسمون فيه المعاونة غير الله ـ تعالى ـ ، لأنه هو ـ سبحانه ـ القادر على أن يأتى بمثله .

وجواب الشرط فى قوله ـ سبحانه ـ إن كنتم صادقين » محذوف دل عليه ما تقدم . أى : إن كنتم صادقين فى زعمكم أنى افتريت هذا القرآن ، فهاتوا أنتم عشر سور مثله مفتريات من عند أنفسكم .

والمتأمل لآيات القرآن الكريم، يرى أن الله ـ تعالى ـ قد تحدى المشركين تارة بأن يأتوا بمثله كما فى سورتى الإسراء والطور . فى سورة الإسراء يقول ـ سبحانه ـ « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن

لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[١] وفى سورة الطور يقول - سبحانه - « فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين »[٢].

وتارة تحداهم بأن يأتوا بعشر سور من مثله كما فى هذه السورة ، وتارة تحداهم بأن يأتوا بسورة واحدة من مثله كما فى سورتى البقرة ويونس ، ففى سورة البقرة « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله .... »[٣] وفى سورة يونس يقول - سبحانه - : « أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين »[٤] وقد عجزوا عن الاتيان بمثل أقصر سورة ، وهم من هم فى فصاحتهم ، فثبت أن هذا القرآن من عند الله - تعالى - .

وقوله - سبحانه - « فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون » إرشاد لهؤلاء المشركين إلى طريق الحق والسعادة لو كانوا يعقلون، إذ الخطاب موجه إليهم لعلهم يثوبون إلى الرشد.

والمعنى : قل - أيها الرسول الكريم- لهؤلاء الذين تحديتهم أن يأتوا بعشر سور من مثل القرآن ، وأبحت لهم أن يستعينوا فى ذلك بمن شاؤا من البشر ، قل لهم : فإن لم يستجب لدعوتكم من استعنتم بهم فى الاتيان بعشر سور من مثل القرآن - وهم لن يستجيبوا لكم قطعا - « فاعلموا » أيها الناس « أن هذا القرآن إنما » أنزل بعلم الله » وحده ، وبقدرته وحدها ، ولا يقدر على إنزاله بتلك الصورة أحد سواه .

واعلموا - أيضا - « أنه لا إله إلا هو » - سبحانه - ، فهو الإله الحق ، الذى تعنو له الوجوه ، وتخضع له القلوب ، وتتجه إليه النفوس بالعبادة والطاعة .

---

(١) الآية ٨٨ (٢) الآية ٣٠ .
(٣) الآية ٢٣ . (٤) الآية ٣٨ .

« فهل أنتم ، أيها المشركون بعـــد كل تلك الأدلة الواضحة الدالة على وحدانية الله ، وعلى أن هذا القرآن من عنده « مسلمون » أى : داخلون فى الإسلام ، ومتبعون لما جاءكم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

والمراد بالعلم فى قوله « فاعلموا أنما أنزل ... » : الاعتقاد الجازم البالغ نهاية اليقين ، أى فأيقنوا أن هذا القرآن ما أنزل إلا ملابسا لعلم الله ـ تعالى ـ المحيط بكل شىء .

والفاء فى قوله « فهل أنتم مسلمون » للتفريع ، والاستفهام هنا المقصود به الحض على الفعل وعدم تأخيره .

أى : فهل أنتم بعد كل هذه الأدلة على صدق ماجاءكم به نبينا محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ تشكون فى أن الإسلام هو الدين الحق ؟ إن الشك فى ذلك لا يكون من عاقل ، فبادروا إلى الدخول فى الإسلام إن كنتم من ذوى العقول التى تعقل ما يقال لها .

ويرى بعض العلماء أن الخطاب فى هذه الآية موجه إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين ، أو إليه وحده ـ صلى الله عليه وسلم على سبيل التعظيم ، وعليه يكون المعنى :

« فإن لم يستجب لكم ـ أيها المؤمنون ـ هؤلاء الذين أعرضوا عن دعوة الحق ، بعد أن ثبت عجزهم عن الإتيان بمـا تحديتموهم به « فاعلموا » أى فازدادوا علما ويقيناً وثباتا ، بأن هذا القرآن « إنمـا أنزل بعلم الله » الذى لا يعزب عنه شىء ، وازدادوا علما بأنه لا إله إلا هو ـ سبحانه ـ مستحق للعبادة والطاعة ، فهل أنتم بعد كل ذلك « مسلمون » أى ثابتون على الإسلام ، وملتزمون بكل أوامره ونواهيه .

ومع أننا نرى أن القولين صحيحان من حيث المعنى ، إلا أننا نفضل الرأى الأول القائل بأن الخطاب للمشركين ، لأن سياق الآيات السابقة فى شأنهم ، فلأن يكون الخطاب لهم هنا أولى .

ثم بين — سبحانه — سوء مصير الذين لا يريدون بأقوالهم وأعمالهم وجه الله - تعالى - فقال :

« مَنْ كانَ يريدُ الحياةَ الدُّنيا وزينتَها نوفِّ إليهم أعمالَهم فيها وهم فيهاَ لا يُبْخَسون (١٥) أولئكَ الذينَ ليسَ لهُم فى الآخرةِ إلا النارُ وحَبِطَ ما صنَعُوا فيها وباطلٌ ما كانوا يعملونَ (١٦) .

أى : من كان يريد ، بأقواله الحسنة وبأعماله الطيبة على حسب الظاهر ، الحصول على (الحياة الدنيا وزينتها) من مال وجاه ومنصب وغير ذلك من المتع الدنيوية ، بدون التفات إلى مايقربه من ثواب الآخرة .

من كانوا يريدون ذلك (نوف إليهم أعمالهم فيها) أى : نوصل إليهم - بإرادتنا ومشيئتنا - ثمار جهودهم وأعمالهم فى هذه الدنيا .

والتعبير بكان فى قوله (من كان يريد . . .) يفيد أنهم مستمرون على إرادة الدنيا بأعمالهم ، بدون تطلع إلى خير الآخرة .

وعدى الفعل (نوف) بإلى ، مع أنه يتعدى بنفسه ، لتضمينه معنى نوصل .
وقوله — سبحانه — (وهم فيها لا يبخسون) تذييل قصد به تأكيد ماسبقه ، وتبيين مظهر من مظاهر عدل الله - تعالى - مع عباده فى دنياهم .
والبخس : نقص الحق ظلما . يقال : بخس فلان فلانا حقه إذا ظلمه ونقصه .

أى : وهم فى هذه الدنيا لا ينقصون شيئا من نتائج جهودهم وأعمالهم ، حتى ولو كانت جهوداً لا إخلاص معها ولا إيمان .
ثم بين - سبحانه - سوء مصيرهم فى الآخرة فقال : أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ماصنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون .
أى : أولئك الذين أرادوا بأقوالهم وأعمالهم الحياة الدنيا وزينتها ، ليس

م فى الآخرة إلا النار، لأنهم استوفوا ما تقتضيه صور أعمالهم الحسنة فى الدنيا بقيت عليهم أوزار نياتهم السيئة فى الآخرة

« وحبط ما صنعوا فيها » أى : وفسد ما صنعوه فى الدنيا من أعمال الخير ، لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله — تعالى — وإنما قصدو بها الرياء رضى الناس ...

وقوله « وباطل ما كانوا يعملون » أى : وباطل فى نفسه ما كانوا يعملونه ى الدنيا من أعمال ظاهرها البر والصلاح ، لأنه لا ثمرة له ولا ثواب فى الآخرة لأن الأعمال بالنيات ، ونيات هؤلاء المرائين ، لم تكن تلتفت إلى ثواب الله ، إنما كانت متجهة اتجاها كليا إلى الحياة الدنيا وزينتها ، إلى إرضاء المخلوق لا الخالق .

وشبيه بهاتين الآيتين قوله — تعالى — : « من كان يريد حرث الآخرة زد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له فى الآخرة من نصيب »(١) .

وقوله — تعالى — : « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحورا . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن، فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا(٢) .

هذا ، ومن العلماء من يرى أن هاتين الآيتين مسوقتان فى شأن الكفار ومن على شاكلتهم من الضالة كاليهود والنصارى والمنافقين ... لأن قوله - تعالى - أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ... » لا يليق إلا بهم .

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٠

(٢) [illegible]

والذى نراه أن هاتين الآيتين تتناولان الكفار ومن على شاكلتهم تناولا أوليا ، ولكن هذا لا يمنع من أنهما يندرج تحت وعيدهما كل من قصد بأقواله وأعماله الحياة الدنيا وزينتها ، ونبــذ كل معانى الإخلاص والطاعة لله رب العالمين .

ومما يشهد لذلك أن هناك أحاديث كثيرة ، حذرت من الرياء ، وتوعدت مقترفه بأشد أنواع العقوبات ، ومن هذه الأحاديث مارواه أبوداود عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضا من الدنيا ، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة - أى رائحتها - [1] .

وصفوة القول : أن الآيتين الكريمتين تسوقان سنة من سنن الله مع عباده فى هذه الدنيا ، وهى أن الله - تعالى - لاينقص الناس شيئاً من ثمار جهودهم وأعمالهم فى هذه الدنيا ، إلا أن هذه الجهود وتلك الأعمال التى ظاهر الصلاح ، إن المقصود بها الحياة الدنيا وزينتها ، وجدوا نتائجها وثمارها فى الدنيا فحسب .
وإن كان المقصود بها رضا الله - تعالى - وثواب الآخرة ، وجدوا ثمارها ونتائجها الحسنة يوم القيامة ، بجانب تمتعهم بما أحله الله لهم فى الدنيا من طيبات .

وذلك لأن العمل للحياة الأخرى — فى شريعة الإسلام — ، لا يحول بين العمل النافع فى الحياة الدنيا ، ولا ينقص شيئاً من آثاره وثمارة ، بل إنه يزكيه وينميه ويباركه . . ورحم الله القائل : ليس أحد يعمل حسنة إلا وفى ثوابها ، فإن كان مسلما مخلصا وفى ثوابها فى الدنيا والآخرة ، وإن كان كافرا وفى ثوابها فى الدنيا .

* * *

وبعد أن بين — سبحانه — حال الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها ،

---

(١) من كتاب رياض الصالحين للإمام النووى من باب «تحريم الرياء» صـ ٦١٩

أتبع ذلك ببيان حال الذين يريدون الحق والصواب فيما يفعلون ويتركون فقال ـ تعالى ـ :

« أفَمَنْ كانَ على بينةٍ من ربه ويتلوهُ شاهدٌ منه، ومن قبله كتابُ موسى إماماً ورحمةً، أولئكَ يؤمنونَ به، ومَن يكفُر به من الأحزابِ فالنارُ موعدُه ، فلا تكُ فى مِرْيةٍ منه إنه الحقُ من ربكَ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يؤمنونَ (١٧) » .

قال صاحب المنار ما ملخصه : البينة ما تبين به الحق من كل شيء بحسبه كالبرهان فى العقليات والنصوص فى النقليات ، والخوارق فى الإلهيات ، والتجارب فى الحسيات ، والشهادات فى القضائيات . والاستقراء فى إثبات الكليات ، وقد نطق القرآن بأن الرسل قد جاءوا أقوامهم بالبينات وأن كل نبي منهم كان يحتج على قومه بأنه على بينة من ربه وأنه جاءه ببينة من ربهم ، كما ترى فى قصصهم فى هذه السورة وفى غيرها ... » [1].

وقوله : « ويتلوه ... » من التلو بمعنى الاقتفاء والاتباع . يقال : تلا فلان فلانا إذا كان تابعا له ومقتفيا أثره . والمراد به هنا : التأييد والتقوية .

وللمفسرين أقوال متعددة فى المقصود بقوله ـ تعالى ـ : « أفمن كان على بينة من ربه » وبقوله ـ سبحانه ـ « ويتلوه شاهد منه » .

وفى مرجع الضمائر فى قوله « ربه ـ ويتلوه ـ ومنه ـ ... »

وأقرب هذه الأقوال إلى الصواب أن يكون المقصود بقوله ـ تعالى ـ « أفمن كان على بينة من ربه » الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأتباعه المؤمنون

وبقوله ـ تعالى ـ « ويتلوه شاهد منه » القرآن الكريم الذى أنزله الله ـ تعالى ـ على نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليكون معجزة له شاهدة بصدقه .

(١) [illegible]

والضمير فى قوله «من ربه» يعود إلى النبى — صلى الله عليه وسلم —، وفى قوله «ويتلوه» يعود إلى القرآن الكريم، وفى قوله «منه» يعود إلى الله — تعالى —.

وعلى هذا القول يكون المعنى: أفمن كان على حجة واضحة من عند ربه تهديه إلى الحق والصواب فى كل أقواله وأفعاله، وهو هذا الرسول الكريم وأتباعه ويؤيده ويقويه فى دعوته شاهد من ربه هو هذا القرآن الكريم المعجز لسائر البشر ....

أفمن كان شأنه كمن ليس كذلك ؟

أو أفمن كان هذا شأنه كمن استحوذ عليه الشيطان فجعله لا يريد إلا الحياة الدنيا وزينتها ؟ كلا إنهما لا يستويان .

وشهادة القرآن الكريم بصدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى دعوته، تتجلى فى إعجازه، فقد تحدى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعداءه أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا مع فصاحتهم وبلاغتهم، فثبت بذلك أن هذا القرآن من عند الله ـ تعالى ـ .

وإنما جعلنا هذا القول أقرب الأقوال إلى الصواب، لأنه هو الذى يتسق مع ما يفيده ظاهر الآية الكريمة، ولأننا عندما نقرأ هذه السورة الكريمة وغيرها، نجد أن الرسل الكرام كثيرا ما يؤكدون لأقوامهم ـ أنهم ـ أى الرسل ـ على بينة من ربهم .

فهذا نوح ـ عليه السلام ـ يقول لقومه: «يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون».

وهذا صالح ـ عليه السلام ـ يقول لقومه: «يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ...»

وهذا شعيب ـ عليه السلام ـ يقول لقومه : « يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، ورزقنى منه رزقا حسنا ... »

وهكذا نجد كل نبى يؤكد لقومه أنه جاءهم على بينة من ربه ، وما دام الأمر كذلك ، فسيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو أفضل من جاء قومه على بينة من ربه ، والمؤمنون به ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقتدون به فى ذلك .

ويرى بعضهم أن المراد بالبينة القرآن الكريم ، وبالشاهد إعجازه ، وبالموصول مؤمنو أهل الكتاب ، وأن الضميرين فى قوله « ويتلوه ـ ومنه » يعودان إلى القرآن الكريم وإعجازه .

وعلى هذا الرأى يكون المعنى : أفمن كان على برهان من ربه يدل على حقية الإسلام وهو القرآن ، ويؤيده ويقويه ـ أى القرآن ـ شاهد منه على كونه من عند الله وهذا الشاهد هو إعجازه للبشر عن أن يأتوا بسورة من مثله .

قال الآلوسى ما ملخصه : قوله : « أفمن كان على بينة من ربه » : أصل البينة الدلالة الواضحة عقلية كانت أو محسوسة ، وتطلق على الدليل مطلقا . والتنوين فيها للتعظيم ، أى : بينة عظيمة الشأن والمراد بها القرآن ، وباعتبار ذلك أو البرهان جاء الضمير الراجع إليها فى قوله « ويتلوه » مذكرا ، وقوله « ويتلوه » أى يتبعه « شاهد » عظيم يشهد بكونه من عند الله ، وهو إعجازه ...

ومعنى كون ذلك الشاهد تابعا له ، أنه وصف له لا ينفك عنه ... وكذا الضمير فى « منه » — يعود إلى القرآن — ، وهو متعلق بمحذوف وقع صفته لشاهد ، ومعنى كونه منه أنه غير خارج عنه ... »[1]

ومن المفسرين من يرى أن المراد بالبينة القرآن الكريم ـ أيضا ـ ويرى أن المراد بالشاهد جبريل ـ عليه السلام ـ وأن قوله ـ سبحانه ـ « ويتلوه » من التلاوة بمعنى القراءة لأن التلو بمعنى الاتباع .

وعلى هذا الرأى يكون المعنى : أفمن كان على برهان جلى من ربه يدل على

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٢٥ .

حقية الإسلام وهو القرآن ، ويتلو هذا القرآن على الرسول - صلى الله عليه وسلم - شاهد من الله - تعالى - هو جبريل - عليه السلام -

فالضمير فى « ويتلوه » على هذا الرأى يعود إلى جبريل - عليه السلام - وفى « منه » يعود على الله - تعالى - .

وهناك أقوال أخرى فى تفسير الآية الكريمة ، رأينا من الخير أن نضرب عنها صفحا لضعفها[1] .

وقوله « ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة » دليل آخر على صدق النبى - صلى الله عليه وسلم - فى دعوته . وهو معطوف على شاهد، والضمير فى قول « ومن قبله ... » يعود على شاهد - أيضا - .

وقوله « إماما ورحمة » منصوبان على الحالية من قوله « كتاب » .

والمعنى : ومن قبل هذا الشاهد على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم وهو القرآن الكريم، أنزل الله الله - تعالى - على موسى كتابه التوراة، مشتملا على صفات الرسول - صلى الله عليه وسلم - و «إماما» يؤتم به فى أمور الدين والدنيا ، و «رحمة» لبنى إسرائيل من العذاب إذا ما آمنوا به واتبعوا تعاليمه

قال الشوكانى : وإنما قدم الشاهد على كتاب موسى مع كونه متأخرا الوجود ، لكونه - أى الشاهد بمعنى المعجز - وصفا لازما غير مفارق، فكا أعرق فى الوصفية من كتاب موسى .

وهى شهادة كتاب موسى وهو التوراة ، أنه بشر بمحمد - صلى الله عل وسلم - وأخبر بأنه رسول الله - تعالى - »[2] .

واسم الإشارة فى قوله « أولئك يؤمنون به » يعود إلى الموصوفين بأ على بينة من ربهم وهم النبى - صلى الله عليه وسلم - وأتباعه المؤمنون الصادقو

---

(١) راجع تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ٢٥ .
(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٢ ص ٤٨٨ .

أى : أولئك الموصوفون بأنهم على بينة من ربهم ، يؤمنون بأن الإسلام الدين الحق ، وبأن رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسول صدق ، وبأنه آن من عند الله ـ تعالى ـ وحده .

فالضمير فى قوله « به » يعود على كل ماجاء به الرسول ـ صلى الله عليه م ـ من عند ربه ، ويدخل فى ذلك دخولا أوليا القرآن الكريم .

وقوله : « ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » بيان لسوء عاقبة افرين بما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد بيان حسن عاقبة منين به .

الأحزاب جمع حزب وهم الذين تحزبوا وتجمعوا من أهل مكة وغيرهم بة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعوته .

أى : ومن يكفر بهذا القرآن وبما جاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هدايات ، فإن نار جهنم هى المكان الذى ينتظره ، وينتظر كل متحزب دعوته ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وفى جعل النار موعدا لهذا الكافر بالقرآن ، إشعار بأن فيها مالا يحيط به ـف من ألوان العذاب ، الذى يجعله لايموت فيها ولا يحيا .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بالحض على النظر الصحيح الذى يؤدى اليقين بأن ماجاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الحق الذى لايشوبه ، فقال ـ تعالى ـ : « فلا تك فى مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر ں لايؤمنون » .

أى : فلا تك ـ أيها العاقل ـ فى شك من أن هذا القرآن من عند الله ، أن ماجاء به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الصدق ، بل عليك أن د اعتقادا جازما فى صحة ذلك ، لأن ماجاء به ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو الثابت من عند ربك ، ولكن أكثر الناس لايؤمنون بذلك ، لانطماس ئرهم ، ولتقليدهم لآبائهم ، ولإيثارهم الغى على الرشد .

وبذلك نرى الآية الكريمة قد ميزت بين من كان على الحق ومن كان على الباطل ، وساقت حشودا من الأدلة الدالة على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى دعوته ، وعلى صحة ما عليه أتباعه ، وأمرتهم بالثبات على الحق الذى آمنوا به ، وتوعدت المتحزبين ضد دعوة الإسلام بنار جهنم التى هى بئس القرار .

هذا ، وهذه الآية الكريمة هى من الآيات التى قيل بأنها مدنية ، وبمراجعتنا لتفسيرها لم نجد ما يؤيد ذلك ، بل الذى نراه أن السورة كلها مكية كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى المقدمة .

ثم وصف - سبحانه - الكافرين بالإسلام ببضعة عشر وصفا . وبين سوء مصيرهم ، كما بين حسن عاقبة المؤمنين ، وضرب مثلا لحال الفريقين فقال - تعالى - .

« وَمَنْ أظلَمُ مِمّن افترَى على الله كذباً ، أولئك يعرَضُون على ربِّهم ويقول الأشهادُ هؤلاء الذينَ كذبُوا على ربِّهم ، ألاَ لعنةُ الله على الظالمينَ (١٨) الذينَ يصدّونَ عن سبيلِ اللهِ ويبغونَها عِوَجاً ، وهم بالآخرةِ هم كافرونَ (١٩) أولئكَ لم يكونُوا معجزينَ فى الأرضِ وما كانَ لهُم مِنْ دونِ الله من أولياءَ يضاعفُ لهم العذابُ ما كانوا يستطيعونَ السمعَ وما كانُوا يبصرونَ (٢٠) أولئك الذينَ خسِرُوا أنفسَهم وضلَّ عنهُم ما كانُوا يفترون (٢١) لاجَرمَ أنَّهم فى الآخرةِ هم الأخسرونَ (٢٢) إنَّ الذينَ آمنُوا وعملُوا الصالحاتِ وأخبتُوا إلى ربِّهم أولئكَ أصحابُ الجنَّةِ هم فيها خالدونَ (٢٣) مثلُ الفريقينِ كالأعمَى والأصَمِّ والبصيرِ والسميعِ هل يستويانِ مثلاً أفلا تذكرونَ (٢٤) » .

قال الإمام الرازى : اعلم أن الكفار كانت لهم عادات كثيرة ، وطرق مختلفة ، فمنها شدة حرصهم على الدنيا ، ورغبتهم فى تحصيلها ، وقد أبطل الله - تعالى - هذه الطريقة بقوله : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ... إلى آخر الآية . ومنها أنهم كانوا ينكرون نبوة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويقدحون فى معجزاته ، وقد أبطل الله - تعالى - ذلك بقوله « أفمن كان على بينة من ربه ... » .

ومنها أنهم كانوا يزعمون فى الأصنام أنها شفعاؤهم عند الله ، وقد أبطل الله - تعالى - ذلك بهذه الآيات وذلك لأن هذا الكلام افتراء على الله ... »(1) .

وجملة « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ... » معطوفة على قوله - تعالى - قبل ذلك « ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده .

والاستفهام للإنكار والنفى ، والتقدير : لا أحد أشد ظلما ممن تعمد الكذب على الله - تعالى - بأن زعم بأن الأصنام تشفع لعابديها عنده ، أو زعم بأن الملائكة بنات الله ، أو أن هذا القرآن ليس من عنده - سبحانه - .

وقوله : « أولئك يعرضون على ربهم ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة على الظالمين » بيان لما يقال لهؤلاء الظالمين على سبيل التشهير والتوبيخ يوم القيامة والأشهاد : جمع شهيد كشريف وأشراف . أو جمع شاهد بمعنى حاضر كصاحب وأصحاب والمراد بهم — على الراجح — جميع أهل الموقف من الملائكة الذين كانوا يسجلون عليهم أقوالهم وأعمالهم ، ومن الأنبياء والمؤمنين .

والمعنى : أولئك الموصوفون بافتراء الكذب على الله تعالى — يعرضون يوم الحساب « على ربهم » ومالك أمرهم ، كما يعرض المجرم للقصاص منه ، ولفضيحته أمام الناس .

---

(1) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٢٠٣ طبعة عبد الرحمن محمد .

« ويقول الأشهاد » الذين يشهدون عليهم بأنهم قد افتروا الكذب على الله « هؤلاء » المجرمون هم « الذين كذبوا على ربهم » بأن نسبوا إليه ما هو منزه عنه .

« ألا لعنة الله على الظالمين » الذين وضعوا الأمور فى غير مواضعها ، فأوردوا أنفسهم المهالك .

وجىء باسم الإشارة « هؤلاء » زيادة فى التشنيع عليهم، وفى تمييزهم عن غيرهم وصدرت جملة « ألا لعنة الله على الظالمين » بأداة الاستفتاح « ألا » لتأكيد الدعاء عليهم بالطرد والإبعاد عن رحمة الله - تعالى - بسبب افترائهم الكذب .

والظاهر أن هذه الجملة من كلام الأشهاد . ويؤيد ذلك ما أخرجه الشيخان عن صفوان بن محرز قال : كنت آخذا بيد ابن عمر ، إذ عرض له رجل فقال: كيف سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول فى النجوى يوم القيامة ؟ قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن الله - عز وجل - يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه - أى ستره وعضده - ويستره من الناس ويقرره ويقول له : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ حتى إذا قرره بذنوبه ، ورأى فى نفسه أنه قد هلك قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا ، وإنى أغفرها لك اليوم ، ثم يعطى كتاب حسناته ، وأما الكفار والمنافقون فيقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين »[(١)] .

ويجوز أن تكون هذه الجملة من كلام الله - تعالى - على سبيل الاستئناف بعد أن قال الأشهاد « هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » .

ثم بين - سبحانه - جانبا آخر من أفعالهم الشنيعة فقال : « الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ... »

و « يصدون » من يصد بمعنى صرف الغير عن الشىء ومنعه منه . يقال صد يصد صدودا وصدا .

(١) تفسير ابن كثير المجلد الرابع ص٢٤٧ طبعة دار الشعب .

و « سبيل الله » طريقه الموصلة إلى رضائه . والمراد بها ملة الإسلام.
و « يبغونها عوجا » أى يطلبون لها العوج . يقال . بغيت لفلان كذا إذا طلبته له .

والعوج — بكسر العين — الميل والزيغ فى الدين والقول والعمل . وكل ما خرج عن طريق الهدى إلى طريق الضلال فهو عوج .

والعوج — بفتح العين — يكون فى المحسوسات كالميل فى الحائط والرمح ، وما يشبههما . أى أن مكسور العين يكون فى المعانى ومفتوحها يكون فى المحس.

والمعنى : ألا لعنة الله وخزيه على الظالمين، الذين من صفاتهم أنهم لا يكتفون بانصرافهم عن الحق ، بل يحاولون صرف غيرهم ويطلبون لملة الإسلام العوج ويصفونها بذلك تنفيرا للناس منها . وقوله « عوجا » مفعول ثان ليبغون ، أو حال من سبيل الله .

وقوله « وهم بالآخرة هم كافرون » بيان لعقيدتهم الباطلة فى شأن البعث والحساب .

أى : وهم بالآخرة وما فيها من حساب وثواب وعقاب كافرون .

وكرر الضمير « هم » لتأكيد كفرهم ، والإشارة إلى أنهم بلغوا فيه مبلغا لم يبلغه أحد سواهم ، حتى لكأن كفر غيرهم يسير بالنسبة لكفرهم .

ثم بين — سبحانه — أنه كان قادرا على تعذيبهم فى الدنيا قبل الآخـــرة ، ولكنه أقر عذابهم إملاء لهم ، فقال : « أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب . . . »

وقوله : معجزين من الإعجاز بمعنى عدم المقدرة على الشيء .

أى : أولئك الذين افتروا على الله الكذب ، لم يكن — سبحانه — عاجزا عن إنزال العذاب الشديد بهم فى الدنيا . وما كان لهم من غيره من نصراء ينصرونهم من بأسه لو أراد إهلاكهم .

قال الإمام الرازى : قال الواحدى : معنى الإعجاز المنع من تحصيل المراد يقال أعجزنى فلان ، أى : منعنى عن مرادى . . .

والمقصود أن قوله « أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض » دل على أنه لا قدرة لهم على الفرار .

وقوله « وما كان لهم من دون الله من أولياء » دل على أن أحدا لا يقدر على تخليصهم من عذابه . فجمع - سبحانه - بين ما يرجع إليهم وبين ما يرجع إلى غيرهم ، ووضح بذلك انقطاع حيلهم فى الخلاص من عذاب الدنيا والآخرة »(١) .

وقوله : « يضاعف لهم العذاب » جملة مستأنفة لبيان أن من حكمة تأخير العذاب عنهم فى الدنيا ، مضاعفة العذاب لهم فى الآخرة .

وقوله : « ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون » تصوير بليغ لاستحواذ الشيطان عليهم .

أى أن هؤلاء المجرمين بلغ بهم الجهل والعناد والجحود ، أنهم ما كانوا يستطيعون السماع للحق الذى جاءهم من ربهم لثقله على نفوسهم الفاسدة ، وما كانوا يبصرون المعجزات الدالة على صدق نبيهم - صلى الله عليه وسلم - .

فليس المراد نفى السماع والإبصار الحسيين عنهم ، وإنما المراد أنهم لانطماس بصائرهم صاروا كمن لا يسمع ولا يرى .

ثم أكد - سبحانه - سوء مصيرهم فقال : « أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

أى : أولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، هم الذين خسروا أنفسهم وأوردوها المهالك بسبب تعمدهم الكذب على الله ، « وضل عنهم » أى : وغاب عنهم ما كانوا يفترونه فى الدنيا من اعتقادات باطلة ، وادعاءات فاسدة .

وقوله « لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون » زيادة فى تأكيد خسرانهم

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ٢٠٦ .

وكلمة « لا جرم » وردت فى القرآن الكريم فى خمسة مواضع . وفى كل موضع جاءت متلوة بأن واسمها .

وجمهور النحاة على أن هذه الكلمة مركبة من « لا » و « جرم » تركيب خمسة عشر . ومعناها بعد هذا التركيب معنى الفعل حق أو ثبت ، والجملة بعدها هى الفاعل لهذا الفعل .

أى : وثبت كونهم فى الآخرة هم الأخسرون .

ومن النحاة من يرى أن « لا » نافية للجنس ، و « جرم » اسمها ، ومابعدها خبرها .

والمعنى . لا محالة ولا شك فى أنهم فى الآخرة هم الأخسرون .

ثم بين — سبحانه — حسن عاقبة المؤمنين بعد بيان سوء عاقبة الكافرين فقال — تعالى — : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » .

قال الجمل : والاخبات فى اللغة هو الخشوع والخضوع وطمأنينة القلب . ولفظ الاخبات يتعدى بإلى وباللام . فإذا قلت أخبت فلان إلى كذا فمعناه اطمأن إليه . وإذا قلت أخبت له فمعناه : خشع وخضع له . فقوله : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » إشارة إلى جميع أعمال الجوارح . وقوله : « وأخبتوا إلى ربهم » إشارة إلى أعمال القلوب ، وهى الخشوع والخضوع لله — تعالى — »[1] .

والمعنى : إن الذين آمنوا بالله — تعالى — إيمانا حقا ، وعملوا الأعمال الصالحات التى ترضيه — سبحانه — واطمأنوا إلى قضاء ربهم وخشعوا له ، أولئك الموصوفون بذلك ، هم أصحاب الجنة وهم الخالدون فيها خلودا أبديا وهم الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٨٩ .

ثم ضرب — سبحانه — مثلا لفريق الكافرين ولفريق المؤمنين فقال : «مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا أفلا تذكرون » .

وقوله : « مثل الفريقين ... » أى : حالهم وصفتهم .

وأصل المثل بمعنى المثل . والمثل : النظير والشبيه ، ثم أطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه — وهو الذى يضرب منه — ، لمورده — أى الذى ورد فيه أولا .

ولا يكون إلا فيما فيه غرابة . ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن عجيب وفيها غرابة .

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفى ، وتقريب المعقول من المحسوس ، وعرض الغائب فى صورة الشاهد . فيكون المعنى الذى ضرب له المثل أوقع فى القلوب ، وأثبت فى النفوس .

والمعنى : حال الفريقين المذكورين قبل ذلك وهما الكافرون والمؤمنون كحال الضدين المختلفين كل الاختلاف .

أما الكافرين فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جمع بين العمى والصمم . لأنهم مع كونهم يرون ويسمعون ، لكنهم لم ينتفعوا بذلك ، فصاروا كالفاقد لهما .

وأما المؤمنون فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جمع بين البصر السليم ، والسمع الواعى ، لأنهم انتفعوا بما رأوا من دلائل تدل على وحدانية الله وقدرته ، وبما سمعوا من توجيهات تدل على صحة تعاليم الإسلام .

والمقصود من هذا التمثيل . تنبيه الكافرين إلى ما هم عليه من ضلال وجهالة ، لعلهم بهذا التنبيه يتداركون أمرهم . فيدخلون فى دين الإسلام ، وتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من حق ، وبذلك يزدادون إيمانا على إيمانهم .

والاستفهام فى قوله « هل يستويان مثلا » للانكار والنفى . أى هل يستوى فى الصفة والحال من كان ذا سمع وبصر بمن فقدهما ؟ كلا إنهما لا يستويان حتى عند أقل العقلاء عقلا .

وقوله : « أفلا تذكرون » حض على التذكر والتدبر والتفكر .

أى : أتشكون فى عدم استواء الفريقين ؟ لا إن الشك فى عدم استوائهما لا يليق بعاقل ، وإنما اللائق به هو اعتقاد تباين صفتيهما ، والدخول فى صفوف المؤمنين الذين عملوا الأعمال الصالحات وأحسنوا إلى ربهم .

وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت حال الكافرين ، وذكرت من أوصافهم أربعة عشر وصفا ، أولها : إفتراء الكذب ... وآخرها : الخسران فى الآخرة . كما بينت حال المؤمنين وبشرتهم بالخلود فى الجنة ، ثم ضربت مثلا لكل فريق وشبهت حاله بما يناسبه من صفات . .

وفى ذلك ما فيه من الهداية إلى الطريق المستقيم ، لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله ووحدانيته ، وعن إعجاز القرآن الكريم ، وعن حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين ، ساقت السورة الكريمة بترتيب حكيم ، قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وقد استغرق هذا القصص معظم الآيات الباقية فيها ، فقد حدثتنا عن قصة نوح مع قومه ، وعن قصة هود مع قومه ، وعن قصة صالح مع قومه ، وعن قصة لوط مع قومه ، وعن قصة شعيب مع قومه ، كما تحدثت عن قصة إبراهيم مع رسل الله الذين جاءوه بالبشرى ، وعن جانب من قصة موسى مع فرعون .

قال الإمام الرازى : اعلم أنه ـ تعالى ـ لما ذكر فى تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة ، وبينات قاهرة ، وبراهين باهرة ، أتبعها بذكر قصص الأنبياء وفيه فوائد :

أحدها : التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبينات

ليس من خواص قوم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، بل هذه "عادة المذمومة كانت حاصلة في جميع الأمم السالفة . والمصيبة إذا عمت خفت . فكان ذكر قصصهم ، وحكاية إصرارهم وعنادهم ، يفيد تسلية للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتخفيف ذلك على قلبه .

وثانيها : أنه ـ تعالى ـ يحكى في هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن في الدنيا والخسارة في الآخرة . وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة في الدنيا ، والسعادة في الآخرة ، وذلك يقوي قلوب المحقين ، ويكسر قلوب المبطلين .

وثالثها : التنبيه على أنه ـ تعالى ـ وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ، ولكنه لا يهملهم ، بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه .

ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأنه كان أميا ، وما طالع كتابا ولا تتلمذ على أستاذ ، فإذا ذكر هذه القصص على هذا الوجه من غير تحريف ولا خطأ ، دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحي من الله ـ تعالى ـ[1] .

وقد بدأت السورة الكريمة قصصها بقصة نوح مع قومه ، وقد وردت هذه القصة في سور متعددة منها سورة الأعراف ، وسورة « المؤمنون » وسورة نوح ... إلا أنها وردت هنا بصورة أكثر تفصيلا من غيرها .

« ولقَدْ أرسَلنا نوحاً إلى قومِهِ إنِّي لكم نذيرٌ مبينٌ (٢٤) أنْ لا تعبدُوا إلا اللهَ إنِّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ أليمٍ (٢٥) فقال الملأُ الذين كفرُوا من قومِهِ ما نراكَ إلاَّ بشراً مِثْلَنا ، وما نراكَ اتَّبعكَ إلاَّ الذينَ هم أراذِلُنا بادِيَ الرَّأيِ وما نرَى لكُم علينا مِنْ فَضْلٍ ، بل نظنُّكم كاذبينَ (٢٦) » .

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٤ ص ٢٤

وقوله : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه . . . » جواب لقسم محذوف . أى : والله لقد أرسلنا نوحا إلى قومه . والدليل على هذا القسم وجود لامه فى بدء الجملة .

وافتتحت القصة بصيغة القسم ، لأن المخاطبين بها لما لم يحذروا ما نزل بقوم نوح بسبب كفرهم ، نزلوا منزلة المنكر لرسالته .

وينتهى نسب نوح — عليه السلام — إلى شيث بن آدم - عليه السلام - . وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاث وأربعين موضعا .

وقوم الرجل : هم أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد . وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازا للمجاورة .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام . فأرسل الله إليهم نوحا ليدلهم على طريق الرشاد .

قال ابن كثير : قال ابن عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول ماعبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا . فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك الصالحين فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم . فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور ، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا . فلما تفاقم الأمر بعث الله - تعالى - رسوله نوحا فأمرهم بعبادة الله وحده »[1] .

وقوله : « إنى لكم نذير مبين . أن لاتعبدوا إلا الله . . . » بيان للوظيفة التى من أجلها أرسل الله — تعالى — نوحا إلى قومه .

قال الشوكانى : قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائى بفتح الهمزة فى « إنى » على تقدير حرف الجر . أى : أرسلناه بأنى . أى : أرسلناه متلبسا بذلك الكلام وهو أنى لكم نذير مبين . وقرأ الباقون بالكسر على إرادة القول . أى : أرسلناه قائلا لهم : إنى لكم نذير مبين »[2] .

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٢٢

(٢) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٢ ص ٤٩٢

ونذير من الإنذار وهو إخبار معه تخويف . .

ومبين : من الإبانة بمعنى التوضيح والإظهار . .

أى : أرسلناه إلى قومه فقال لهم ياقوم : إنى لكم محذر تحذيرا واضحا من موجبات العذاب ، التى تتمثل فى عبادتكم لغير الله ـ تعالى ـ .

واقتصر على الإنذار ، لأنهم لم يعملوا بما بشرهم به ، وهو الفوز برضا الله ـ تعالى ـ إذا ما أخلصوا له العبادة والطاعة .

وجملة « أن لاتعبدوا إلا الله » بدل من قوله « إنى لكم نذير مبين » أى : أرسلناه بأن لاتعبدوا إلا الله .

وقوله : « إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » جملة تعليلية ، تبين حرص نوح الشديد على مصلحة قومه ومنفعتهم .

أى إنى أحذركم من عبادة غير الله ، لأن هذه العبادة ستؤدى بكم إلى وقوع العذاب الأليم عليكم ، وما حملنى على هذا التحذير الواضح إلا خوفى عليكم ، وشفقتى بكم ، فأنا منكم وأنتم منى بمقتضى القرابة والنسب .

ووصف اليوم بالأليم على سبيل المجاز العقلى ، وهو أبلغ من أن يوصف العذاب بالأليم ، لأن شدة العذاب لما بلغت الغاية والنهاية فى ذلك ، جعل الوقت الذى تقع فيه وقتا أليما أى مؤلما .

ثم حكى ـ سبحانه ـ مارد به قوم نوح عليه فقال : « فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين » .

والمراد بالملأ : أصحاب الجاه والغنى من قوم نوح . وهذا اللفظ اسم جمع لا واحد له من لفظه كرهط وهو ـ كما يقول الآلوسى ـ : مأخوذ من قولهم فلان مليء بكذا ، إذا كان قادرا عليه . . . أو لأنهم متمالئون أى متظاهرون متعاونون ، أو لأنهم يملأون القلوب والعيون . . . . .

ووصفهم بالكفر ، لتسجيل ذلك عليهم من أول الأمر زيادة فى ذمهم .

أى : بعد هذا النصح الحكيم الذى وجهه نوح ـ عليه السلام ـ لقومه ، رد عليه أغنياؤهم وسادتهم بقولهم « ما نراك ، يا نوح إلا بشرا مثلنا » أى : إلا إنسانا مثلنا ، ليست فيك مزية تجعلك مختصا بالنبوة دوننا .....

فهم — لجهلهم وغبائهم — توهموا أن النبوة لا تجامع البشرية ، مع أن الحكمة تقتضى أن يكون الرسول بشرا من جنس المرسل إليهم ، حتى تتم فائدة التفاهم منه ، والاقتداء به فى أخلاقه وسلوكه .

وقد حكى القرآن قولهم هذا فى أكثر من موضع ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ « وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ، ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ... »[1] .

ثم إنهم فى التعليل لعدم إتباع نبيهم لم يكتفوا بقولهم ما نراك إلا بشر مثلنا ، بل أضافوا إلى ذلك قولهم : وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، ومرادهم بقولهم : « أراذلنا » أى فقراؤنا ومن لاوزن لهم فينا .

قال الجمل : ولفظ « أراذلنا » فيه وجهان : أحدهما أنه جمع الجمع فهو جمع أرذل — بضم الذال — جمع رذل — بسكونها — نحو كلب وأكلب وأكالب ...

ثانيهما : أنه جمع مفرد وهو أرذل كأكبر و أكابر .... والأرذل هو المرغوب عنه لرداءته »[2]

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٣٣ ، ٣٤

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٣٩١

ومرادهم بقولهم : بادى الرأى ، أى : أوله من البدء . يقال : بدأ يبدأ إذا فعل الشيء أولا ، وعليه تكون الياء مبدلة من الهمزة لانكسار ما قبلها ، ويؤيده قراءة أبي عمرو « بادىء الرأى » .

أي : وما نراك اتبعك يانوح إلا الذين هم أقلنا شأنا ، وأحقرنا حالا ، من غير أن يتثبتوا من حقيقة أمرك ، ولو تثبتوا وتفكروا ما اتبعوك . ويصح أن يكون مرادهم بقولهم « بادى الرأى » أى اتبعوك ظاهرا لا باطنا . ويكون لفظ « بادى » من البدء بمعنى الظهور . يقال : بدا الشيء يبدو بَدْوًا وبُدُوًّا وبداء أى ظهر وعليه يكون المعنى : وما نراك إتبعك يا نوح إلا الذين هم أهوننا أمرا ، ومع ذلك فإن إتباعهم لك إنما هو فى ظاهر أمرهم ، أما بواطنهم فهى تدين بعقيدتنا .

وشبيه بهذه الجملة قوله - تعالى - « قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون[١]

قال صاحب الكشاف : وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم فى الأسباب الدنيوية ، لأنهم أى الملأ من قوم نوح — كانوا جهالا ما كانوا يعلمون إلا ظاهرا من الحياة الدنيا ، فكان الأشرف عندهم من له جاه ومال كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام ، يعتقدون ذلك ، ويبنون عليه إكرامهم وإهانتهم ، ولقد زل عنهم أن التقدم فى الدنيا - مع ترك الآخرة - لا يقرب أحدا من الله وإنما يبعده ، ولا يرفعه بل يضعه ، فضلا عن أن يجعله سببا فى الاختيار للنبوة والتأهيل لها . . . . . »[٢]

ثم أضافوا إلى مزاعمهم السابقة زعما جديدا فقالوا : وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين »

والفضل : الزيادة فى الشرف والغنى وغيرهما مما يتميز به الإنسان عن غيره .

---

(١) سورة الشعراء الآية ١١١

(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٦٥

والمراد به هنا : آثاره التي تدل عليه .

أي : أنت يانوح لست بشرا مثلنا ، وأتباعك هم أحقرنا شأنا ، وما نرى لك ولمتبعيك شيء من الزيادة علينا لا في العقل ولا غيره ، بل اننا لنعتقد أنكم كاذبون في دعواكم أنكم على الحق ، لأن الحق في نظرنا هو في عبادة هذه الأصنام التي عبدها من قبلنا آباؤنا .

وهكذا نرى أن الملأ من قوم نوح — عليه السلام — قد عللوا كفرهم بما جاء به بثلاث علل ، أولها : أنه بشر مثلهم ، وثانيها : أن أتباعه من فقرائهم وثالثها : أنه لا مزية له ولأتباعه عليهم ...

وهي كلها علل باطلة ، تدل على جهلهم ، وانطماس بصيرتهم ، ويدل على ذلك ، رد نوح — عليه السلام — الذي حكاه القرآن في قوله — تعالى — :

« قال يا قومِ أرأيتم إن كنتُ على بيِّنةٍ من ربِّي ، وآتاني رحمةً مِنْ عندِه ، فعُمِّيَتْ عليكم أنُلزِمُكُموهَا وأنتم لهـا كارهونَ (٢٨) ويا قومِ لا أسألـكم عليه مالاً إنْ أجرِيَ إلا عَلَى الله ، وما أنا بطاردِ الذينَ آمنُوا إنّهم ملاقو ربِّهم ولـكني أراكُم قوماً تجهلون (٢٩) ويا قومِ من ينصرُني من اللهِ إنْ طردتُهم أفلا تذكرونَ (٣٠) ولا أقولُ لـكُم عندِي خزائنُ اللهِ ولا أعلمُ الغيبَ ولا أقولُ إني مَلَكٌ ، ولا أقولُ للذينَ تَزْدَرِي أعينُـكُم لن يُؤتِيَهُم اللهُ خيراً ، اللهُ أعلمُ بما في أنفُسِهِم إني إذاً لمن الظالمينَ (٣١) » .

أي : قال نوح — عليه السلام — في رده على الملأ الذين كفروا من قومه: « يا قوم » ، أي : يا أهلي وعشيرتي الذين يسرني مايسرهم ويؤلمني مايؤلمهم .
« أرأيتم إن كنت على بينة من ربي » أي : أخبروني إن كنت على بصيرة من أمري ، وحجة واضحة من ربي ، بها يتبين الحق من الباطل .

« وآتاني رحمة من عنده » أي : ومنحني بفضله وإحسانه النبوة التي هي طريق الرحمة لمن آمن بها، واتبع من إختاره الله لها . فالمراد بالرحمة هنا النبوة « فعميت عليكم » أي . فأخفيت عليكم هذه الرحمة ، وغاب عنكم الانتفاع بهداياتها ، لأنكم ممن استحب العمى على الهدى .

يقال : عمى على فلان الأمر : أي أخفى عليه حتى صار بالنسبة اليه كالأعمى

قال صاحب المنار : قرأ الجمهور فعميت ـ بالتخفيف ـ كخفيت وزنا ومعنى . قال ـ تعالى ـ « فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون »

وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالتشديد والبناء للمفعول « فعميت » أي : فحجبها عنكم جهلكم وغروركم . . .

والتعبير بعميت مخففة ومشددة أبلغ من التعبير بخفيت وأخفيت ، لأنه مأخوذ من العمى المقتضى لأشد أنواع الخفاء [1]

والاستفهام في قوله : « أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » للإنكار والنفي .

أي : إذا كانت الهداية إلى الخير التي جئتكم بها قد خفيت عليكم مع وضوحها وجلائها ، فهل أستطيع أنا وأتباعي أن نجبركم إجبارا ، ونقسركم قسرا على الإيمان بي، وعلى التصديق بنبوتي، والحال أنكم كارهون لها نافرون منها . .؟

كلا إننا لا نستطيع ذلك لأن الإيمان الصادق يكون عن اقتناع واختيار لا عن إكراه وإجبار .

قال صاحب الظلال ما ملخصه : واللفظ في القرآن قد يرسم بجرسه صورة كاملة للتناسق الفني بين الألفاظ. ومن أمثلة ذلك قوله ـ تعالى ـ في قصة نوح مع قومه « أنلزمكموها . . . . » فأنت تحس أن كلمة أنلزمكموها تصور جو الإكراه ، بإدماج كل هذه الضمائر في النطق ، وشد بعضها إلى بعض كما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ، ويشدون اليه وهم نافرون ، وهكذا يبدو

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٦٤

لون من التناسق فى التعبير أعلى من البلاغة الظاهرية ، وأرفع من الفصاحة اللفظية ، [1] .

ثم وجه نوح – عليه السلام – نداء ثانيا إلى قومه زياد فى التلطف معهم ، وطمعا فى إثارة وجدانهم نحو الحق فقال : « وياقوم لا أسألكم عليه مالا » أى : لا أطلب منكم شيئا من المال فى مقابل تبليغ ما أمرنى ربى بتبليغه إليكم ؛ لأن طلبى هذا قد يجعلكم تتوهمون أنى محب للمال . . . .

« إن أجرى إلا على الله » . تعالى – وحده ، فهو الذى يثيبنى على دعوتى إلى عبادتكم له ، وفى هذه الجملة إشارة إلى أنه لا يسأل الله – تعالى – مالا ، وإنما يسأله ثوابا ، إذ ثواب الله يسمى أجرا لأنه جزاء على العمل الصالح .

وشبيه بهذه الآية قوله – تعالى – فى سورة الشعراء : « وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين » . وجملة « وما أنا بطارد الذين آمنوا » معطوفة على جملة « لا أسألكم عليه مالا » لأن مضمونها كالنتيجة لمضمون المعطوف عليها ، اذ أن زهده فى مالهم يقتضى تمسكه بأتباعه المؤمنين .

الطرد : الأمر بالبعد عن مكان الحضور تحقيرا أو زجرا .

أى : وما أنا بطارد الذين آمنوا بدعوتى ، سواء أكانوا من الفقراء أم من الأغنياء ، لأن من استغنى عن مال الناس وعطائهم لا يقيسهم بمقياس الغنى والجاه والقوة . . . . وانما يقيسهم بمقياس الإيمان والتقوى .

قال الآلوسى : والمروى عن ابن جريج أنهم قالوا له يا نوح ان أحببت أن نتبعك فأطرد هؤلاء الأراذل – وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم فى الأمر سواء

وذلك كما قال زعماء قريش للنبى – صلى الله عليه وسلم – شأن فقراء الصحابة : اطرد هؤلاء عن مجلسك ونحن نتبعك فإنا نستحى أن نجلس معهم فى مجلسك . . . » [2]

(١) تفسير فى ظلال القرآن ج ١٢ ص ٥٢٤

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ٣٥

وجملة « أنهم ملاقوا ربهم » تعليل لنفى طردهم .

أى : لن أطردهم عن مجلسى أبدا ، لأنهم قد آمنوا بى ، ولأن مصيرهم إلى الله ـ تعالى ـ ، فيحاسبهم على سرهم وعلنهم ، أما أنا فأكتفى منهم بظواهرهم التى تدل على صدق إيمانهم ، وشدة إخلاصهم .

وجاءت هذه الجملة بصيغة التأكيد ، لأن الملأ الذين كفروا من قومه كانوا ينكرون البعث والحساب . .

وقوله : « ولكنى أراكم قوما تجهلون » إستدراك مؤكد لمضمون ماقبله ،

أى : لن أطردهم ، لأن ذلك ليس من حق بعد أن آمنوا ، وبعد أن تكفل الله بحسابهم ، ولكنى مع هذا البيان المنطق الواضح ، أراكم قوما تجهلون القيم الحقيقية التى يقدر بها النبى عند الله ، وتجهلون أن مرد الناس جميعا إليه وحده ـ سبحانه ـ ليحاسبهم على أعمالهم ،وتتطاولون على المؤمنين تطاولا يدل على طغيانكم وسفاهتكم .

وحذف مفعول « تجهلون » للعلم به ، وللإشارة إلى شدة جهلهم .

أى : تجهلون كل ما ينبغى ألا يجهله عاقل

ثم وجه إليهم نداء ثالثا لعلهم يفيئون إلى رشدهم فقال : « ويا قوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ، أفلا تذكرون » .

أى : افترضوا ياقوم أنى طردت هؤلاء المؤمنين الفقراء من مجلسى ، فمن ذا الذى يحمينى ويجيرنى من عذاب الله ، لأنه ـ سبحانه ـ ميزانه فى تقييم الناس ليس كميزانكم ، إذ أكرم الناس عنده هو أتقاهم وليس أغناهم ، وهؤلاء المؤمنون الفقراء هم أكرم عنده ـ سبحانه ـ منكم ، فكيف أطردهم ؟

والاستفهام فى قوله : « أفلا تذكرون » لتوبيخهم وزجرهم . والجملة معطوفة على مقدر .

أي : أتصرون على جهلكم ، فلا تتذكرون أن لهم ربا ينصرهم إن طردتهم ؟ إن بقيتم على هـذا الإصرار سيكون أمركم فرطا ، وستتعرضون للعذاب الأليم الذي يهلككم

ثم أخذ نوح - عليه السلام - في تفنيد شبهاتهم ، وفي دحض مفترياتهم ، وفي تعريفهم بحقيقة أمره فقال : « ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك . . . »

والخزائن : جمع خزانة - بكسر الخاء - وهو المكان الذي يخزن فيه المال أو الطعام أو غيرهما خشية الضياع . والمراد منها هنا : أنواع رزقه - سبحانه - التي يحتاج إليها عباده . وأضيفت إليه - سبحانه - لاختصاصه بها وملكيته لها .

أي : إني لا أقول لكم إن النبوة التي وهبني الله إياها ، تجعلني أملك خزائن أرزاقه - سبحانه - فأصير بذلك من الأثرياء ، وأعطي من أشاء بغير حساب . . .

كلا إني لا أملك شيئاً من ذلك ، وإنما أنا عبد الله ورسوله ، أرسلني لأخرجكم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان .

وهذه الجملة الكريمة رد على قولهم السابق : « وما نرى لكم علينا من فضل » .

وأيضا لا أقول لكم إني أعلم الغيوب التي اختص الله بعلمها ، فأدعي قدرة ليست للبشر ، أو أزعم أن لي صلة بالله - تعالى - غير صلة النبوة ، أو أدعي الحكم على قلوب الناس وعلى منزلتهم عند الله ، كما ادعيتم أنتم فقلتم « وما نراك اتبعك إلا الذين أراذلنا بادي الرأي . . . . »

وأيضاً فإني لا أقول لكم إني ملك ، بل أنا بشر مثلكم آكل مما تأكلون منه ، وأشرب مما تشربون منه ، إلا أن الله - تعالى - اختصني من بينكم بالنبوة ، والبشرية مقتضى للنبوة وليست مانعا منها - كما تزعمون - حيث قلتم « ما نراك إلا بشراً مثلنا » .

ولم يكتف نوح - عليه السلام - بهذا الرد المبطل لدعاواهم الفاسدة ، بل أضاف إلى ذلك - كما حكى القرآن عنه - « ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما أنفسهم ، إنى إذا لمن الظالمين » .

وقوله : « تزدرى » من الازدراء بمعنى التحقير والانتقاص . يقال : ازدرى فلان فلانا إذا احتقره وعابه .

أى : أنا لا أقول لكم بأنى أملك خزائن الله ، أو بأنى أعلم الغيب ، أو بأنى ملك من الملائكة ، ولا أقول لكم - أيضا - فى شأن الذين تنظرون إليهم نظر احتقار واستصغار : إنهم - كما تزعمون - « لن يؤتيهم الله خيرا » يسعدهم فى دينهم ودنياهم وآخرتهم ، بل أقول لكم إنه - سبحانه - سيؤتيهم ذلك - إذا شاء - ، لأنه - سبحانه - هو الأعلم بما فى نفوسهم من خير أو شر . أما أنا فلا علم لى إلا بظواهرهم التى تدل على إيمانهم وإخلاصهم ! و « إنى إذن لمن الظالمين » لنفسى ولغيرى إذا ادعيت أية دعوى من هذه الدعاوى .

قال البيضاوى ما ملخصه . وأسند - سبحانه - الازدراء إلى الأعين فى قوله « تزدرى أعينكم » للمبالغة والتنبيه على أنهم استرذلوهم بادى الرؤية - أى بمجرد نظرهم إليهم - من غير روية بسبب ماعاينوه من رثاثة حالهم وقلة منالهم . دون تأمل فى معانيهم وكمالاتهم »[1] .

وهذا الإسناد من باب المجاز العقلى . لأن الازدراء ينشأ عن مشاهدة الصفات الحقيرة « فى نظر الناظر » فتكون الأعين سببا فى هذا الازدراء .

وأكد جملة « إنى إذن لمن الظالمين » بعدة مؤكدات ، تحقيقا لظلم كل من يدعى شيئا من هذه الدعاوى ، وتكذيبا لأولئك الكافرين الذين احتقروا المؤمنين ، وزعموا أن الله - تعالى - لن يؤتيهم خيرا .

---

(١) تفسير البيضاوى ص ٤٦٧

وهكذا نجد نوحا ـ عليه السلام ـ يشرح لقومه بأسلوب مهذب حكيم حقيقة أمره ، ويرد على شبهاتهم بما يزدقها ...

وعندما وجدوا أنفسهم عاجزين عن الرد على نبيهم بأسلوب مقارعة الحجة بالحجة ، لجأوا ـ على عادة طبقتهم ـ إلى أسلوب التحدى وقد أخذتهم العزة بالإثم فقالوا ـ كما حكى القرآن عنهم ـ :

« قالُوا يا نوح قد جادَلْتَنَا فأكثرتَ جِدالَنا ، فأْتِنا بِما تَعِدُنَا إنْ كُنتَ من الصادقينَ (٣٢) قالَ إنما يأتيكُم به اللهُ إنْ شاء وما أنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) ولا ينفعكُم نُصْحِي إنْ أردتُ أنْ أَنْصَحَ لكم ، إنْ كانَ اللهُ يريدُ أنْ يُغوِيَكُم هو ربكُم وإليه تُرجَعون (٣٤) » .

أى : قال قوم نوح ـ عليه السلام ـ له بعد أن غلبهم بحجته ، وعجزوا عن الدفاع عن أنفسهم : « يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ..... » .

أى : خاصمتنا ونازعتنا فأكثرت فى ذلك حتى لم تترك لنا منفذا للرد عليك والجدال هو المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة . وأصله ـ كما يقول الآلوسى ـ من جدلت الحبل إذا أحكمت فتله ، ومنه الجديل ـ أى الحبل المفتول ـ ، وجدلت البناء أحكمته ، والأجدل : الصقر المحكم البنية ، والمجدل ـ كمنبر ـ القصر المحكم البناء ....

وسميت المنازعة فى الرأى جدالا ، لأن كل واحد من المتجادلين كأنما يفتل الآخر عن رأيه ـ أى يصرفه عنه ـ ....

وقيل : الأصل فى الجدال الصراع ، وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة ـ بفتح الجيم ـ أى : الأرض الصلبة »[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ صـ ٤١

ثم أضافوا إلى هذا العجز عن مجابهة الحجة سفاهة فى القول فقالوا : فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » .

أى : لقد سئمنا مجادلتك لنا ومللناها ، وأتنا بالعذاب الذى تتوعدنا به ، إن كنت من الصادقين فى دعواك النبوة ، وفى وعيدك لنا بعقاب الله ، فإننا مصرون على عبادة آلهتنا ، وكارهون لما تدعونا إليه .

وهذا شأن الجاهل المعاند ، إنه يشهر السيف إذا أعجزته الحجة ، ويعلن التحدى إذا يئس عن مواجهة الحق .....

ولكن نوحا ـ عليه السلام ـ لم يخرجه هذا التحدى عن سمته الكريم ، ولم يقعده عناد قومه عن مداومة النصح لهم ، وإرشادهم إلى الحقيقة التى ضلوا عنها ، فقد رد عليهم بقوله « إنما يأتيكم به الله ـ إن شاء ـ وما أنتم بمعجزين » .

أى : إنما يأتيكم بهذا العذاب الذى تستعجلونه الله ـ تعالى ـ وحده ، إن شاء ذلك ، لأنه هو الذى يملكه « وما أنتم بمعجزين » أى : وما أنتم بمستطيعين الهروب من عذابه متى اقتضت مشيئته ـ سبحانه ـ إنزاله بكم ، لأنه ـ تعالى ـ لا يعجزه شىء .

ثم أضاف إلى هذا الاعتراف بقدرة الله ـ تعالى ـ اعترافا آخر بشمول إرادته فقال : « ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم » .

والنصح معناه : تحرى الصلاح والخير للمنصوح مع إخلاص النية من شوائب الرياء .

يقال : نصحته ونصحت له ... أى : أرشدته إلى مافيه صلاحه .

ويقال : رجل ناصح الجيب إذا كان نقى القلب طاهر السريرة . والناصح الخالص من كل شىء .

أى : إنى قد دعوتكم إلى طاعة الله ليلا ونهارا ، ولم أقصر معكم فى النصيحة

ومع ذلك فإن نصحي الدائم لن يفيدكم شيئا ، مادامت قلوبكم في عمى عنه ، وأسماعكم في صمم منه ، ونفوسكم على غير استعداد له .

وجواب الشرط في قوله « إن أردت أن أنصح لكم » محذوف لدلالة ماقبله عليه .

وقوله « إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون : زيادة تأكيد منه - عليه السلام - لعموم قدرة الله وإرادته .

أي : إن كان الله - تعالى - يريد أن يضلكم عن طريق الحق ، ويصرفكم عن الدخول فيه ، بسبب إصراركم على الجحود والعناد ، فعل ذلك ، لأنه هو ربكم ومالك أمركم ، وإليه وحده ترجعون يوم القيامة ، ليجازيكم الجزاء الذي تستحقونه .

وهكذا نجد نوحا - عليه السلام - قد سلك في دعوته إلى الله ، أحكم السبل ، واستعمل أبلغ الأساليب ، وصبر على سفاهة قومه صبرا جميلا .

وعند هذا الحد من قصة نوح مع قومه ، تنتقل السورة الكريمة انتقالا سريعا بقارئها إلى الحديث عن مشركي مكة ، الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند الله ، ووقفوا من نبيهم - صلى الله عليه وسلم - موقفا يشبه موقف قوم نوح منه - عليه السلام - ، فترد عليهم بقوله - تعالى - :

« أم يقولُون افتراهُ قُلْ إنِ افترَيتُه فعَـلَيَّ إجرامِي ، وأنا بريء مما تُجرِمُون (٣٥) » .

وأم هنا منقطعة بمعنى بل التي للإضراب ، وهو انتقال المتكلم من غرض إلى آخر .

والافتراء : الكذب المتعمد الذي لاتوجد أدنى شبهة لقائله .

والإجرام: اكتساب الجرم وهو الشيء القبيح الذي يستحق فاعله العقاب.

يقال: أجرم فلان وجرم واجترم، بمعنى اقترف الذنب الموجب للعقوبة وللمفسرين في معنى هذه الآية اتجاهان:

الاتجاه الأول يرى أصحابه: أنها معترضة بين أجزاء قصة نوح مع قومه، وأنها في شأن مشركي مكة الذين أنكروا أن يكون القرآن من عند الله.

وعليه يكون المعنى: لقد سقنا لك يا محمد من أخبار السابقين ما هو الحق الذي لا يحوم حوله باطل، ولكن المشركين من قومك لم يعتبروا بذلك، بل يقولون إنك قد افتريت هذا القرآن، قل لهم: إن كنت قد افتريته — على سبيل الفرض - فعلي وحدي تقع عقوبة إجرامي وافترائي الكذب، وأنا بريء من عقوبة إجرامكم وافترائكم الكذب.

أما الاتجاه الثاني فيرى أصحابه أن الآية الكريمة ليست معترضة، وإنما هي من قصة نوح عليه السلام ـ وعليه يكون المعنى: بل أيقول قوم نوح إن نوحا ـ عليه السلام ـ قد افترى واختلق ما جاء به من عند نفسه ثم نسبه إلى الله ـ تعالى ـ، قل لهم إن كنت قد افتريته فعلي سوء عاقبة إجرامي وكذبي، وأنا بريء مما تقترفونه من منكرات، وما تكتسبونه من ذنوب.

ويبدو لنا أن الاتجاه الأول أرجح، لأن التعبير عن إنكارهم بيقولون، وعن الرد عليهم بقل، الدالين على الحال والاستقبال، يقوى أن الآية الكريمة في شأن مشركي مكة.

وقد اقتصر الإمام ابن جرير على الاتجاه الأول، ولم يذكر شيئا عن الاتجاه الثاني مما يدل على ترجيحه للاتجاه الأول فقال ما ملخصه: يقول ـ تعالى ـ ذكره: أيقول يا محمد هؤلاء المشركون من قومك، افترى محمد هذا القرآن وهذا الخبر عن نوح، قل لهم: إن افتريته فتخرصته واختلقته فعلي

إثمى فى افترائى ما افتريت على ربى دونكم... وأنا برىء مما تذنبون وتأثمون فى حقى وحق ربكم ... »[1] .

وإلى هنا نرى الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبا من مجادلة قوم نوح له، ومن تطاولهم عليه ، ومن تحديهم لدعوته ، كما حكت لنا رده عليهم بأسلوب حكيم ، جعلهم يعجزون عن مجابهته فماذا كان من شأنه وشأنهم بعد ذلك ؟

* * *

لقد تابعت السورة الكريمة حديثها عن هذه القصة، فبينت بعد ذلك قضاء الله العادل فى هؤلاء الظالمين ، حيث حكت لنا ماأوحاه الله إلى نوح - عليه السلام - فى شأنهم ، وما أمره بصنعه .... فقال - تعالى — :

« وأُوحِيَ إلى نوحٍ أنَّه لن يؤمِنَ من قَوْمِك إلا مَن قد آمَن ، فلا تَبْتَئِسْ بما كانُوا يفعلونَ (٣٦) واصنَعِ الفُلْكَ بأعيُنِنا وَوَحْيِنا ولا تخاطِبْنِي فى الذينَ ظلمُوا ، إنّهم مغرقونَ (٣٧) ويَصْنعُ الفُلكَ وكلّما مرّ عليه ملأٌ من قومِهِ سخِرُوا منهُ قال إنْ تسخَرُوا منّا فإنّا نسخرُ منكم كما تسخرونَ (٣٨) فسوفَ تعلمونَ مَنْ يأتيهِ عذابٌ يُخزِيهِ ويَحِلُّ عليه عذابٌ مقيمٌ (٣٩) » .

وقوله - سبحانه - : (وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن) معطوف على قوله (قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ...).

أى : بعد أن لج قوم نوح فى طغيانهم ، وصموا آذانهم عن سماع دعوته .. أوحى الله - تعالى - إلى نوح بأن يكتفى بمن معه من المؤمنين ، فإنه لم يبق فى قومه من يتوقع إيمانه بعد الآن ، وبعد أن مكث فيهم زمنا طويلا يدعوهم إلى الدخول فى الدين الحق ، فلم يزدهم دعاءه إلا فرارا ..

(١) تفسير ابن جرير ج ١٢ ص ٢٠

وقوله : « فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » تسلية له — عليه السلام — عما أصابه منهم من أذى .

والابتئاس : الحزن . يقال : ابتأس فلان بالأمر ، إذا بلغه ما يكرهه ويغمه . والمبتئس : الكاره الحزين فى استكانة .

أى : فلا تحزن بسبب إصرارهم على كفرهم ، وتماديهم فى سفاهاتهم وطغيانهم ، فقد آن الأوان للانتقام منهم .

قال الإمام ابن كثير : يخبر الله — تعالى — فى هذه الآية ، أنه أوحى إلى نوح لما استعجل قومه نقمة الله بهم ، وعذابه لهم ، فدعا عليهم نوح دعوته وهى « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا » فعند ذلك أوحى الله — تعالى — إليه « أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » فلا تحزن عليهم ، ولا يهمنك أمرهم »[1] .

وقوله : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ... » معطوف على قوله « فلا تبتئس .... » .

والفلك : ماعظم من السفن . ويستعمل هذا اللفظ للواحد والجمع ، والمراد به هنا سفينة واحدة عظيمة قام بصنعها نوح — عليه السلام — .

والباء فى قوله « بأعيننا » للملابسة ، والجار والمجرور فى موضع الحال من ضمير اصنع .

أى : واصنع الفلك يا نوح ، حالة كونك بمرأى منا ، وتحت رعايتنا وتوجيهنا وإرشادنا عن طريق وحينا .

وقوله — سبحانه — « ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون » نهى له عن المراجعة بشأنهم .

أى : ولا تخاطبنى يانوح فى شأن هؤلاء الظالمين ، بأن ترجونى فى رحمتهم أو فى دفع العذاب عنهم ، فقد صدر قضائى بإغراقهم ولا راد لقضائى .

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٥٢ طبعة دار الشعب .

وقوله - تعالى - «ويصنع الفلك» بيان لامتثال نوح لأمر ربه .

وجاء التعبير بالفعل المضارع مع أن الصنع كان فى الماضى ، استحضارا لصورة الصنع ، حتى لكأن نوحا - عليه السلام - يشاهد الآن وهو يصنعها .

ثم بين - سبحانه - موقف قومه منه وهو يصنعها وقال : «وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه .....» .

والسخرية : الاستهزاء . يقال : سخر فلان من فلان وسخر به ، إذا استخف به وضحك منه .

أى : امتثل نوح لأمر ربه ، فطفق يصنع الفلك ، فكان الكافرون من قومه كلما مروا به وهو يصنعها استهزءوا به ، وتعجبوا من حاله ، وقالوا له على سبيل التهكم به ، يانوح صرت نجارا بعد أن كنت نبيا ، كما جاء فى بعض الآثار .

وهنا يرد عليهم نوح بقوله: «إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون» .

أى قال نوح لهم : إن تسخروا منى ومن أتباعى اليوم لصنعنا السفينة ، وتستجهلوا منا هذا العمل ، فإنا سنسخر منكم فى الوقت القريب سخرية محققة فى مقابل سخريتكم الباطلة .

قال الإمام الرازى : وقوله «إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون» فيه وجوه :

الأول : التقدير : إن تسخروا منا فى هذه الساعة فإنا نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الغرق فى الدنيا والخزى فى الآخرة .

الثانى : إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فإنا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه ، فأنتم أولى بالسخرية منا .

الثالث : إن تستجهلونا فإنا نستجهلكم ، واستجهالكم أقبح وأشد ، لأنكم لاتستجهلون إلا لأجل الجهل بحقيقة الأمر ، والاغترار بظاهر الحال ، كما هو عادة الأطفال »[1] .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٧ ص ١٢٤

ثم أضاف نوح ـ عليه السلام ـ إلى تهديدهم تهديدا آخر فقال : فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » .

أى : فسوف تعلمون عما قريب ، من منا الذى سينزل عليه العذاب المخزى المهين فى الدنيا ، ومن منا الذى سيحل عليه العذاب الدائم الخالد فى الآخرة .

وبهذا نرى أن هذه الآيات الكريمة قد قررت حكم الله الفاصل فى شأن قوم نوح ـ عليه السلام ـ ، بعد أن لبث فيهم زمنا طويلا يدعوهم إلى الحق ، ولكنهم صموا آذانهم عنه فماذا كان من أمره وأمرهم بعد ذلك .

كان من أمره وأمرهم بعد ذلك أن أمر الله ـ تعالى ـ نوحا ـ عليه السلام ـ أن يحمل فى السفينة بعد أن أتم صنعها من كل نوع من أنواع الحيوانات ذكرا وأنثى ، ثم نزل الطوفان ، وسارت السفينة بمن فيها ، وأغرق الله ـ تعالى ـ الظالمين ، وقد حكى ـ سبحانه ـ كل ذلك فقال ـ تعالى ـ :

« حتى إذا جاء أمرُنا وفارَ التَّنُّورُ ، قلنا احمِلْ فيهاَ مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثنَيْنِ وأهلَكَ إلا من سبَق عليه القولُ ومَنْ آمَن ، وما آمن معَهُ إلا قليلٌ (٤٠) وقالَ اركَبُوا فيها باسم الله مَجْرِيهاَ ومُرْساها إنَّ ربِّى لغفورٌ رحيمٌ (٤١) وهى تجرِى بِهِم فى موجٍ كالجبالِ ونادَى نوحٌ ابنَه وكانَ فى مَعزِلٍ يا بنىَّ اركبْ معَنا ولا تكُن مع الكافرينَ (٤٢) قالَ سآوِى إلى جبلٍ يَعصِمُنِى من الماء قالَ لا عاصمَ اليومَ من أمرِ اللهِ إلا مَنْ رحِمَ وحالَ بينَهُماَ الموج فكانَ من المُغرَقِينَ (٤٣) وقيلَ يا أرضُ ابلَعِى ماءكِ ويا سماء أَقلِعِى وغيضَ الماءُ وقُضِىَ الأمرُ واستوتْ على الْجُودِىِّ وقيلَ بُعْدًا للقومِ الظالمينَ (٤٤) » .

فقوله ـ سبحانه ـ (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل

زوجين اثنين ...) بيان لمرحلة جديدة من مراحل قصة نوح - عليه السلام - مع قومه .

و (حتى) هنا حرف غاية لقوله - تعالى - قبل ذلك (ويصنع الفلك . . . . أخ) .

والمراد بالأمر فى قوله - سبحانه - « حتى إذا جاء أمرنا ... » حلول وقت نزول العذاب بهم ، فهو مفرد الأمور ، أى : حتى إذا حل بهم وقت عذابنا ... قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين .

ويصح أن يكون المراد به الأمر بالشىء على أنه مفرد الأوامر ، فيكون المعنى : حتى إذا جاء أمرنا لنوح بركوب السفينة ، وللأرض بتفجير عيونها ، وللسماء بإنزال أمطارها ... قلنا احمل فيها ...

وجملة « وفار التنور » معطوفة على « جاء أمرنا » ، وكلمة « فار » من الفور والفوران ، وهو شدة الغليان للماء وغيره .

قال صاحب المنار ما ملخصه : « والفور والفوران ضرب من الحركة والارتفاع القوى . يقال فى الماء إذا غلا وارتفع .... ويقال فى النار إذا هاجت قال - تعالى - « إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور » ...
ومن المجاز : فار الغضب ، إذا اشتد .... »(1)

وللمفسرين فى المراد بلفظ « التنور » أقوال منها : أن المراد به الشىء الذى يخبز فيه الخبز ، وهو ما يسمى بالموقد أو الكانون ...

ومنها أن المراد به وجه الأرض ...

ومنها : أن المراد به موضع اجتماع الماء فى السفينة ...

ومنها : أن المراد به طلوع الفجر من قولهم : تنور الفجر ...

ومنها : أن المراد به أعالى الأرض والمواضع المرتفعة فيها ..

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٧٥ .

وقيل : إن الكلام على سبيل المجاز ، والمراد بقوله ـ سبحانه ـ «فار التنور» التمثيل بحضور العذاب ، كقولهم : حمى الوطيس ، إذا اشتد القتال[١] .

وأرجح هذه الأقوال أولها ، لأن التنور فى اللغة يطلق على الشيء الذى يخبز فيه ، وفورانه معناه : نبع الماء منه بشدة مع الارتفاع والغليان ، كما يفور الماء فى القدر عند الغليان ، ولعل ذلك كان علامة لنوح — عليه السلام — على اقتراب وقت الطوفان .

وقد رجح هذا القول المحققون من المفسرين ، فقد قال الإمام ابن جرير بعد أن ذكر جملة من الأقوال فى معنى التنور : « وأولى الأقوال عندنا بتأويل قوله « التنور » قول من قال : هو التنور الذى يخبز فيه، لأن هذا هو المعروف من كلام العرب . وكلام العرب لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب ، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك ، فيسلم لها .

وذلك لأنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به .

أى : قلنا لنوح حين جاء عذابنا قومه ... وفار التنور الذى جعلنا فورانه بالماء آية مجيء عذابنا ... احمل فيها — أى السفينة من كل زوجين اثنين ... »[٢]

وقال الامام الرازى ما ملخصه : فإن قيل : فما الأصح من هذه الأقوال ـ فى معنى التنور ـ ؟

قلنا : الأصل حمل الكلام على حقيقته ، ولفظ التنور حقيقة فى الموضع الذى يخبز فيه ، فوجب حمل اللفظ عليه ...

ثم قال : والذى روى من أن فور التنور كان علامة لهلاك القوم لا يمتنع لأن هذه واقعة عظيمة ، وقد وعد الله — تعالى — المؤمنين النجاة ، فلا بد وأن

---

(١) راجع تفسير القرطبي ج ٩ ص ٣٤ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٢ ص ٢٥ .

يجعل لهم علامة بها يعرفون الوقت المعين ، فلا يبعد جعل هذه الحالة علامة لحدوث هذه الواقعة »[١] .

وجملة « قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك » جواب إذا

ولفظ (زوجين) تثنية زوج ، والمراد به هنا الذكر والأنثى من كل نوع

وقراءة الجمهور : من كل زوجين اثنين) بدون تنوين للفظ كل، وبإضافته إلى زوجين .

وقرأ حفص : (من كل زوجين اثنين) بتنوين لفظ كل وهو تنوين عوض عن مضاف إليه ، والتقدير : احمل فيها من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها ذكرا وأنثى .

ويكون لفظ (زوجين) مفعولا لقوله (احمل) واثنين صفة له .

والمراد بأهله : أهل بيته كزوجته وأولاده ، وأكثر ما يطلق لفظ الأهل على الزوجة ، كما فى قوله - تعالى - (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور نارا ، قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا ...)[٢].

والمراد بأهله : من كان مؤمنا منهم .

وجملة (إلا من سبق عليه القول) استثناء من الأهل .

أى : احمل فيها أهلك إلا من سبق عليه قضاؤنا بكفره منهم فلا تحمله .

والمراد بمن سبق عليه القول : زوجته التى جاء ذكرها فى سورة التحريم فى قوله - تعالى - (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ..) وابنه الذى أبى أن يركب معه السفينة .

قال الآلوسى عند تفسيره لهذه الجملة : والمراد زوجة له أخرى تسمى

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ١٧ ص ٢٢٦ .

(٢) سورة القصص الآية ٢٩ .

(واعلة) بالعين المهمله . وفى رواية (والقه) وابنة منها واسمه (كنعان) .. وكانا كافرين)[1] .

وجملة (ومن آمن) معطوفة على قوله (وأهلك) أى : واحمل معك من آمن بك من قومك .

والمعنى للآية الكريمة : لقد امتثل نوح أمر ربه له بصنع السفينة ، حتى إذا ما تم صنعها ، وحان وقت نزول العذاب بالكافرين من قومه ، وتحققت العلامات الدالة على ذلك ، قال الله — تعالى — لنوح : احمل فيها من كل نوع من أنواع المخلوقات التى أنت فى حاجة إليها من ذكر وأنثى ، واحمل فيها أيضا من آمن بك من أهل بيتك دون من لم يؤمن ، واحمل فيها كذلك جميع المؤمنين الذين اتبعوا دعوتك من غير أهل بيتك .

وقد ختم — سبحانه — الآية الكريمة بما يدل على قلة عدد من آمن به فقال : « وما آمن معه إلا قليل » .

أى : وما آمن معه إلا عدد قليل من قومه بعد أن لبث فيهم قرونا متطاولة يدعوهم إلى الدين الحق ليلا ونهارا ، وسرا وعلانية .

قال الآلوسى بعد أن ساق أقوالا فى عدد من آمن بنوح — عليه السلام — من قومه : ... والرواية الصحيحة أنهم كانوا تسعة وسبعين : زوجته ، وبنوه الثلاثة ونساؤهم ، واثنان وسبعون رجلا وامرأة من غيرهم ... »[2] .

ثم حكى — سبحانه — ما قاله نوح للمؤمنين عند ركوبهم السفينة فقال : « وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم » .

و « مجريها ومرساها » قرأها الجمهور بضم الميمين فيهما ، وهما مصدران من جرى وأرسى . والباء فى « باسم الله » للملابسة ، والآية الكريمة معطوفة على جملة « قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ... »

(١) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ٥٠ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ٥٠ .

أى : قلنا له ذلك فامتثل أمرنا ، وقال لمن معه من المؤمنين : سلموا أمركم لمشيئة الله — تعالى — وقولوا عند ركوب السفينة : باسم الله جريها فى هذا الطوفان العظيم ، وباسم الله إرساؤها فى المكان الذى يريد الله — تعالى — إرساؤها فيه .

قال الشيخ الفاضل ابن عاشور : وعدى فعل « اركبوا » بفى ، جريا على الأسلوب الفصيح ، فإنه يقال : ركب الدابة إذا علاها . وأما ركوب الفلك فيعدى بفى ، لأن إطلاق الركوب عليه مجاز ، وإنما هو جلوس واستقرار ، فلا يقال : ركب السفينة ؛ فأرادوا التفرقة بين الركوب الحقيقى والركوب المشابه له ، وهى تفرقة حسنة »[1] .

وجملة « إن ربى لغفور رحيم » تعليل للأمر بالركوب المصاحب لذكر الله — تعالى — :

أى : إن ربى لعظيم المغفرة ولعظيم الرحمة لمن كان مطيعا له مخلصا فى عبادته

قال الإمام ابن كثير عند تفسير هذه الآية ما ملخصه : يقول الله -تعالى- إخبارا عن نوح أنه قال للذين أمر بحملهم معه فى السفينة « اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ... »

وقال — سبحانه — فى موضع آخر : فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين. وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » .

ولهذا تستحب التسمية فى ابتداء الأمور : عند الركوب فى السفينة وعلى الدابة ...

فقد روى الطبرانى عن ابن عباس عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : أمان أمتى من الغرق إذا ركبوا فى السفن أن يقولوا : بسم الله الملك ... بسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم »[2] .

---

(١) تفسير سورة هود ص ٧٣ (٢) تفسير ابن كثير حـ ٤ ص ١٥٥

ثم بين ـ سبحانه ـ حال السفينة وهى تمر بهم عباب الماء فقال :

(وهى تجرى بهم فى موج كالجبال) .

والموج : ما ارتفع من ماء البحر عند اضطرابه . وأصله من ماج الشيء يموج إذا اضطرب ومن قوله ـ تعالى ـ وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض . »

قال صاحب الكشاف : فإن قلت. بم اتصل قوله ـ تعالى ـ وهى تجرى بهم . ؟

قلت : اتصل بمحذوف دل عليه اركبوا فيها باسم الله ، كأنه قيل: فركبوا فيها وهم يقولون : باسم الله ، وهى تجرى بهم . أى تجرى بهم وهم فيها فى موج كالجبال ، يريد موج الطوفان ، شبه كل موجة بالجبل فى تراكمها وارتفاعها . . »[1] .

وقوله ـ سبحانه ـ : (ونادى نوح ابنه وكان فى معزل: يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين) تصوير لتلك اللحظه الرهيبة الحاسمة التى أبصر فيها نوح ـ عليه للسلام ـ ابنه الكافر وهو منعزل عنه وعن جماعة المؤمنين .

والمعزل : مكان العزلة ، أى : الانفراد .

أى : وقبل أن يشتد الطوفان وترتفع أمواجه ، رأى نوح ابنه كنعان ، وكان هذا الإبن فى مكان منعزل ، فقال له نوح بعاطفة الأبوة الناصحة الملهوفة يا بنى اركب معنا فى السفينة ، ولا تكن مع القوم الكافرين الذين سيلفهم الطوفان بين أمواجه عما قريب . ولكن هذه النصيحة الغالية من الأب الحزين على مصير ابنه ، لم تجد أذنا واعية من هـذا الإبن العاق المغرور ، بل رد على أبيه بقوله : (سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء . . .)

أى : قال : سألتجىء إلى جبل من الجبال الشاهقة ، لكى أتحصن به من وصول الماء إلى . . .

وهنا يرد عليه أبوه الرد الأخير فيقول ـ كما حكى القرآن عنه ـ : (قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . . .)

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٧٠

أى : قال نوح لابنه : لا معصوم اليـــوم من عذاب الله إلا من رحمه — سبحانه — بلطفه وإحسانه، وأما الجبال وأما الحصون ... وأما غيرهما من وسائل النجاة ، فسيعلوها الطوفان ، ولن تغنى عن المحتمى بها شيئا .

وعبر عن العذاب بأمر الله ، تهويلا لشأنه ..

وقوله : « وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » بيان للعاقبة السيئة التى آل إليها أمر الابن الكافر .

أى : وحال وفصل الموج بهديره وسرعته بين الإبن وأبيه ، فكانت النتيجة أن صار الابن الكافر من بين الكافرين المغرقين .

والتعبير بقوله : « وحال .... » يشعر بسرعة فيضان الماء واشتداده ، حتى لكأن هذه السرعة لم تمهلهما ليكملا حديثهما .

والتعبير بقوله : « فكان من المغرقين » يشير إلى أنه لم يغرق وحده ، وإنما غرق هو وغرق معه كل من كان على شاكلته فى الكفر ،

وهكذا تصور لنا هذه الآية الكريمة مادار بين نوح وابنه من محاورات فى تلك اللحظات الحاسمة المؤثرة ، التى يبذل فيها كل أب مايستطيع بذله من جهود لنجاة ابنه من هذا المصير المؤلم ....

وبعد أن غرق الكافرون ، ونجا نوح ومن معه من المؤمنين ، وجه الله — تعالى — أمره إلى الأرض وإلى السماء ... فقال : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى، وقيل بعدا للقوم الظالمين » .

أى : وبعد أن أدى الطوفان وظيفته فأغرق بأمر الله - تعالى - الكافرين ، قال الله - تعالى - للأرض : « يا أرض ابلعى ماءك » .

أى : اشربى أيتها الأرض ما على وجهك من ماء ، وابتلعيه بسرعة فى باطنك كما يبتلع الإنسان طعامه فى بطنه بدون استقرار فى الفم .

وقال - سبحانه - للسماء « ويا سماء أقلعى » أى : أمسكى عن إرسال المطر

يقال : أقلع فلان عن فعله إقلاعا ، إذا كف عنه وترك فعله . ويقال : أقلعت الحمى عن فلان ، إذا تركته :

فامتثلتا - أي الأرض والسماء - لأمر الله - تعالى - في الحال ، فهو القائل وقوله الحق : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » .

وقوله « وغيض الماء » أي : نقص ونضب . يقال : غاض الماء يغيض ، إذا قل ونقص .

والمراد به هنا : الماء الذي نشأ عن الطوفان » .

وقوله : « وقضى الأمر » أي : تم ونفذ ما وعد الله — تعالى — به نبيه نوحا - عليه السلام - من إهلاكه للقوم الظالمين .

والضمير في قوله : « واستوت على الجودي » للسفينة ، والجودي . جبل بشمال العراق بالقرب من مدينة الموصل . وقيل هو جبل بالشام ....

أي : واستقرت السفينة التي تحمل نوحا والمؤمنين بدعوته ، على الجبل المعروف بهذا الاسم ، بعد أن أهلك الله أعداءهم .

قال ابن كثير ما ملخصه : وكان خروجهم من السفينة في يوم عاشوراء من المحرم ، فقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : مر النبي - صلى الله عليه وسلم - بأناس من اليهود ، وقد صاموا يوم عاشوراء ، فقال لهم : ماهذا الصوم ؟ قالوا . هذا اليوم الذي نجى الله موسى وبني إسرائيل من الغرق ، وغرق فيه فرعون . وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودي . فصامه نوح وموسى - عليهما السلام - شكرا لله .

فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - أنا أحق بموسى ، وأحق بصوم هذا اليوم . فصامه ، وقال لأصحابه . من كان أصبح منكم صائما فليتم صومه ، ومن كان قد أصاب من غذاء أهله ، فليتم بقية يومه »[1]

(١) سورة يس الآية ٨٢

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٢٥٧

ثم ختم — سبحانه — الآية الكريمة بقوله : وقيل بعدا للقوم الظالمين ، أي : هلاكا وسحقا وطردا من رحمة الله - تعالى - للقوم الذين ظلموا أنفسهم بإيثارهم الكفر على الإيمان ، والضلالة على الهداية .

قال الجمل : « وبعدا » مصدر بعد — بكسر العين — ، يقال بعد بعدا — بضم فسكون - وبعداً - بفتحتين - إذا بعد بعدا بعيدا بحيث لا يرجى عوده ، ثم استعير للهلاك ، وخص بدعاء السوء . وهو منصوب على المصدر بفعل مقدر . أي : وقيل بعدوا بعدا .... »[1] .

هذا وقد تكلم بعض العلماء عن أوجه البلاغة والفصاحة فى هذه الآية كلاما طويلا ، نكتفى بذكر جانب مما قاله فى ذلك الشيخ القاسمى فى تفسيره ،

قال - رحمه الله - ما ملخصه : « هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحوت من بدائع الفوائد نهايتها . وقد اهتم علماء البيان بإبراز ذلك ، ومن أوسعهم مجالا فى مضمار معارفها الإمام « السكاكى » فقد أطال وأطنب فى كتابه « المفتاح » فى الحديث عنها ...

فقد قال — عليه الرحمة — فى بحث البلاغة والفصاحة » ....

« إذ قد وقفت على البلاغة ، وعثرت على الفصاحة ، فسأذكر لك على سبيل الأنموذج ، آية أكشف لك فيها من وجوهما ما عسى أن يكون مستورا عنك ، وهذه الآية هى قوله - تعالى - « وقيل يا أرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر .... »

والنظر فى هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعانى ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية .

أما النظر فيها من جهة علم البيان ..... فنقول : إنه - عز سلطانه - لما أراد أن يبين معنى هو : أردنا أن نرد ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن نقطع طوفان السماء فانقطع ، وأن نغيض الماء النازل من السماء فغاض

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤٠٠

لما أراد ذلك : بنى الكلام على التشبيه ، بأن شبه الأرض والسماء بالمأمور الذى لايتأتى منه أن يعصى أمره .... فقال: ياأرض ابلعى ماءك، وياسماء أقلعى ...

ثم قال : « ماءك » بإضافة المـــاء إلى الأرض على سبيل المجاز ، تشبيها لاتصال الماء بالأرض ، باتصال الملك بالمالك .

ثم اختار لاحتباس المطر لفظ الإقلاع الذى هو ترك الفاعل للفعل ..،

وأما النظر فيها من حيث علم المعانى .... فذلك أنه اختير « يا » دون سائر أخواتها ، لكونها أكثر فى الاستعمال ... واختير لفظ « ابلعى » على «ابتلعى» لكونه أخصر ...

ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع منه ، حتى يدخل فيه ظلمهم لأنفسهم ....

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية فهى كما ترى . نظم للمعانى لطيف ، وتأدية لها ملخصة مبينة ، لاتعقيد يعثر الفكر فى طلب المراد ، ولا التواء يشيك الطريق إلى المرتاد ، بل إذا جربت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها ، فما من لفظة فى تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك ، إلا ومعناها أسبق إلى قلبك .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية : فألفاظها على ماترى عربية ، مستعملة جارية على قوانين اللغة ، سليمة من التنافر ، بعيدة عن البشاعة ....

ولا تظن الآية مقصورة على ماذكرت ، فلعل ماتركت أكثر مما ذكرت[1].

ثم ختم ـ سبحانه ـ قصة نوح مع قومه فى هذه السورة ، بتلك الضراعة التى تضرع بها نوح ـ عليه السلام ـ بشأن ولده ، وبذلك الرد الحكيم الذى رد به الخالق ـ عز وجل ـ على نوح ـ عليه السلام ، وبتعقيب على القصة يدل على وحدانية الله ـ تعالى ـ ، وعلى صدق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يبلغه عن ربه قال ـ تعالى ـ :

---

(١) راجع تفسير القاسمى جـ ٩ صـ ٣٤٤٦ وتفسير المنار جـ ١٢ صـ ٩٠

« ونادَى نوحٌ ربَّه فقالَ : ربِّ إنَّ ابنِي مِنْ أَهْلِي ، وإنَّ وعدَكَ الحقُّ وأنتَ أحكَمُ الحاكِمينَ (٤٥) قال يا نوحُ إنَّه ليسَ من أهلِكَ إنَّه عملٌ غيرُ صالحٍ ، فلا تسألْنِ ما ليسَ لكَ به علمٌ إنِّي أعِظُكَ أَنْ تكونَ من الجاهلينَ (٤٦) قال ربِّ إنِّي أعوذُ بكَ أن أسألَكَ ما ليسَ لِي به علمٌ ، وإلا تغفِرْ لي وترحَمْني أكُنْ من الخاسرينَ (٤٧) قيلَ يانوحُ اهبِطْ بسَلامٍ منا وبركاتٍ عليكَ وعَلَى أممٍ ممَّن مَعكَ ، وأممٌ سنُمتِّعُهُمْ ثم يمسُّهم مِنَّا عذابٌ أليمٌ (٤٨) تِلكَ من أنباء الغيبِ نوحِيهَا إليكَ ما كنتَ تعلَمهَا أَنتَ ولا قومُكَ من قبلِ هـذَا فاصْبِرْ ، إنَّ العَاقبةَ للمتقِينَ (٤٩) ».

والمراد بالنداء في قوله - سبحانه - : ونادى نوح ربه .. » الدعاء والضراعة إلى الله - تعالى -

والجملة الكريمة معطوفة على ماقبلها .

أي : وبعد أن تخلف ابن نوح عليه السلام عن الركوب معه في السفينة ، وقضى الأمر بهلاك الكافرين ونجاة المؤمنين .. تضرع نوح - عليه السلام - إلى ربه فقال في استعطاف ورجاء :

يارب ! إن إبني « كنعان » « من أهـلي » قطعة مني ، فأسألك أن ترحمه برحمتك « إن وعدك الحق » أي : إن كل وعد تعده لعبادك هو الوعد الحق وأنت - ياربي - قد وعدتني بنجاة أهلي إلا من سبق عليه القول منهم ، لكني في هذا الموقف العصيب أطمع في عفوك عن ابني وفي رحمتك له .

وقوله : « وأنت أحكم الحاكمين » أي : وأنت يا إلهي - لاراد لما تحكم به ، ولا معقب لحكمك ، وحكمك هو الحق والعدل ، وهو المنزه عن الخطأ والمحاباة ، لأنه صادر عن كال العلم والحكمة ...

واكتفى نوح ـ عليه السلام ـ بأن يقول: رب إن ابنى من أهلى . وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ، دون أن يصرح بمطلوبه وهو نجاة ابنه تأدباً مع الله ـ تعالى ـ ، وحياء منه ـ سبحانه ـ واعتقاداً منه بأنه ـ سبحانه ـ عليم بما يريده ، وخبير بما يجول فى نفسه . . . .

وهذا لون من الأدب السامى، سلكه الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ فى مخاطبتهم لربهم ـ عز وجل ـ ومن أولى منهم بذلك ؟!!

ولعل نوحا ـ عليه السلام ـ عندما تضرع إلى ربه ـ سبحانه ـ بهذا الدعاء لم يكن يعلم أن طلب الرحمة أو النجاة لإبنه الكافر ممنوع ، فكان حاله فى ذلك كحال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما قال لعمه أبى طالب: «لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك » واستمر يستغفر له إلى أن نزل قوله ـ تعالى ـ « ماكان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولوكانوا أولى قربى ...... » (١)

وقال الشيخ القاسمى: وإنما قال نوح ذلك ـ أى :رب إن ابنى من أهلى ... ألخ ـ لفهمه من الأهل ذوى القرابة الصورية ، والرحمة النسبية ، وغفل ـ لفرط التأسف على إبنه ـ عن إستثنائيته ـ تعالى ـ بقوله : « إلا من سبق عليه القول » ولم يتحقق أن إبنه هو الذى سبق عليه القول ، فاستعطف ربه بالاسترحام ، وعرض بقوله (وأنت أحكم الحاكمين) إلى أن العالم العادل الحكيم لايخلف وعده) (٢)

وقوله ـ سبحانه ـ (قال يانوح إنه ليس من أهلك . . . .) رد من الله تعالى ـ على نوح فيما طلبه منه .

أى : قال الله ـ تعالى ـ مجيبا لنوح ـ عليه السلام ـ فيما سأله إياه :يانوح

(١) راجع تفسيرنا لسورة التوبة حـ ٣١٢ .

(٢) تفسير القاسمى حـ ٩ ص ٣٤٤٨

إن ابنك هذا (ليس من أهلك) لأن مدار الأهلية مبنى على القرابة الدينية ، وقد انقطعت بالكفر ، فلا علاقة بين مسلم وكافر .

أو ليس من أهلك الذين وعدتك بنجاتهم ، بل هو ممن سبق عليه القول بسبب كفره) .

فالمراد نفى أن يكون من أهل دينه واعتقاده ، وليس المراد نفى أن يكون من صلبه ، لأن ظاهر الآية يدل على أنه إبنه من صلبه ، ومن قال بغير ذلك فقوله ساقط ولا يلتفت اليه ، لخلوه عن الدليل .

قال ابن كثير : وقد نص غير واحد من الأئمة على تخطئة من ذهب فى تفسير هذا إلا أنه ليس بإبنه ، وإنما كان ابن زنية . . . . .

وقال ابن عباس وغير واحد من السلف : ما زنت أمرأة نبى قط ، ثم قال : وقوله انه ليس من أهلك) أى : الذين وعدتك بنجاتهم .

وقول ابن عباس فى هذا هو الحق الذى لا محيد عنه ؛ فإن الله - تعالى - أغير من أن يمكن أمرأة نبى من الفاحشة) [٢]

وجملة (إنه عمل غير صالح) تعليل لنفى الأهلية .

وقد قرأ الجمهور (عمل) بفتح الميم وتنوين اللام - على أنه مصدر مبالغة فى ذمه حتى لكأنه هو نفس العمل غير الصالح وأصل الكلام انه ذو عمل غير صالح ، فحذف المضاف للمبالغة بجعله عين عمله الفاسد لمداومته عليه .

وقرأ الكسائى ويعقوب (عمل) بوزن فرح بصيغة الفعل الماضى — أى: إنه عمل عملا غير صالح وهو الكفر والعصيان ، فحذف الموصوف وأقيمت صفته مقامه .

قال صاحب الكشاف وقوله : (إنه عمل غير صالح) تعليل لإنتفاء كونه من أهله . وفيه إيذان بأن قرابه الدين غامرة لقرابة النسب ، وأن نسيبك فى دينك ومعتقدك من الأباعد فى المنصب وإن كان حبشيا وكنت قرشيا لصيقك

---

(١) تفسير ابن كثير حـ ٤ صـ ٢٥٩

وخصيصك ، ومن لم يكن على دينك وإن كان أمس أقاربك رحما فهو أبعد بعيد منك)[١]

وقال الفخر الرازى : هذه الآية تدل على أن العبرة بقرابة الدين لا بقرابة النسب ، فإن هـــذه الصورة كانت قرابة النسب حاصلة من أقوى الوجوه ، ولكن لما انتفت قرابه الدين ، لاجرم نفاه الله — تعالى — بأبلغ الألفاظ وهو : (إنه ليس من أهلك)[٢]

والفاء فى قوله : (فلا تسألن ماليس لك به علم ..) للتفريع .

أى : ما دمت قد وقفت على حقيقة الحال ، فلا تلتمس منى ملتمسا لا تعلم على وجه اليقين ، أصواب هو أم غير صواب ، بل عليك أن تتثبت من صحة ما تطلبه ، قبل أن تقدم على طلبه .

وجملة (إنى أعظك أن تكون من الجاهلين) تأكيد لما قبلها ، ونهى له عن مثل هذا السؤال فى المستقبل ، بعد أن أعلمه بحقيقة حال ابنه .

أى : إنى أنهاك يانوح عن أن تكون من القوم الجاهلين ، الذين يسألون عن أشياء لا يتحققون وجه الصواب فيها .

وهنا بين الله — تعالى — أن نوحا — عليه السلام — قـــد تنبه إلى ما أرشده اليه ربه ، فبادر بطلب العفو والصفح منه — سبحانه — فقال : (قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم ...) .

أى : قال نوح — عليه السلام — ملتمسا الصفح من ربه : رب إنى أستجير بك ، وأحتمى بجنابك من أن أسألك شيئا بعد الآن ، ليس عندى علم صحيح بأنه جائز ولائق (وإلا تغفر لى) مافرط منى من قول ، وما صدر عنى من فعل .

---

(١) تفسير الكشاف ح ٢ ص ٢٧٣

(٢) تفسير الفخر الرازى ح ١٨ ص ٣

(وترحمنى) برحمتك الواسعة التى وسعت كل شىء .

(أكن من الخاسرين) الذين خسروا أنفسهم بالاحتجاب عن علمك وحكمتك . ثم بشر — سبحانه — نبيه نوحا — عليه السلام — بقبول توبته فقال : (قيل يانوح أهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك .....)

والسلام : التحية المقرونة بالأمان والإطمئنان ، وأصله السلامه ، والباء فيه للمصاحبة والبركات . جمع بركة وهى ثبوت الخير ونماؤه وزيادته ، واشتقاقها من البرك ، وهو صدر البعير . يقال : برك البعير إذا ألقى بركة أى صدره على الأرض وثبت . ومنه البركه لثبوت الماء فيها .

والأمم : جمع أمة ، وهى الجماعة الكثيرة من الناس ، يجمعها نسب واحد أو لغة واحدة ، أو موطن واحد .

أى : قال الله — تعالى — مبشرا نوحا — عليه السلام — بقبول توبته : يانوح اهبط من السفينة مصحوبا منا بالأمان مما تكره ، وبالخيرات النامية والنعم الثابتة عليك ، وعلى أمم متشعبة ومتفرعة وناشئة من الأمم المؤمنة التى ستهبط معك ، بعد أن نجاكم الله — تعالى — بفضله ورحمته من العذاب ، الذى حل بالكافرين من قومك .

وكان مقتضى الظاهر أن يقال : قال يانوح اهبط بسلام ... ولكن جاء التعبير بقيل ، مسايرة للتعبيرات السابقة فى أجزاء القصة ، مثل قوله — سبحانه — « وقيل ياأرض ابلعى ماءك .... » ، وقوله : « وقيل بعدا للقوم الظالمين » .

وقوله (اهبط بسلام ...) فيه إشارة إلى أنه كان قبل الهبوط فى ضيافة الله ورعايته ، وأنه لولا عناية الله به وبمن معه من المؤمنين ، لما نجت السفينة من ذلك الطوفان العظيم .

والتعبير بقوله (منا) لزيادة التكريم، وتأكيد السلام . أى : أنزل بسلام

ناشيء من عندنا، وليس من عند غيرنا؛ لأن كل سلام من غيرنا لاقيمة له بجانب سلامنا.

وقوله (عليك وعلى أمم ممن معك) متعلق بسلام وبركات.

وفى هذا إشارة إلى أنه - سبحانه - سيجعل من ذرية نوح ومن ذرية من معه من المؤمنين، أمما كثيرة ستكون محل كرامة الله وأمانه وبركاته.

وقوله - سبحانه - (وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم) كلام مستأنف مسوق للاحتراز والتحذير من سوء عاقبة المخالفة لأمر الله ...

أى: أن الأمم التى ستكون من نسلك ومن نسل أتباعك يانوح على قسمين: قسم منهم له منا السلام، وعليه البركات بسبب إيمانه وعمله الصالح ...

وقسم آخر سنمتعه فى الدنيا بالكثير من زينتها وخيراتها، ثم يصيبه يوم القيامة عذاب أليم بسبب جحوده لنعمنا، وعصيانه لرسلنا.

فعلى كل عاقل أن يجتهد فى أن يكون من القسم الأول، وأن يتجنب القسم الثانى.

ثم اختتم الله - تعالى - قصة نوح - عليه السلام - مع قومه فى هذه السورة بقوله: (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين).

واسم الإشارة (تلك) يعود إلى ماقصه الله - تعالى - من قصة نوح مع قومه فى هذه السورة.

والأنباء: جمع نبأ وهو الخبر الهام. والغيب: مصدر غاب، وهو مالا تدركه الحواس ولا يعلم ببداهة العقل.

أى: تلك القصة التى قصصناها عليك يامحمد بهذا الأسلوب الحكيم، من أخبار الغيب الماضية، التى لايعلم دقائقها وتفاصيلها أحد سوانا.

ونحن (نوحيها إليك) ونعرفك بها عن طريق وحينا الصادق الأمين.

وهذه القصة وأمثالها (ما كنت تعلمها) أنت يا محمد ، وما كان يعلمها (قومك) أيضا ، بهذه الصورة الصادقة الحكيمة ، الخالية من الأساطير والأكاذيب .

(من قبل) هذا الوقت الذى أوحيناها إليك فيه .

ومادام الأمر كذلك (فاصبر) صبرا جميلا على تبليغ رسالتك ، وعلى أذى قومك كما صبر أخوك نوح من قبل .

وجملة (إن العاقبة للمتقين) تعليل للأمر بالصبر .

والعاقبة : الحالة التى تعقب حالة قبلها ، وقد شاعت عند الإطلاق فى حالة الخير كما فى قوله - تعالى - (والعاقبة للتقوى) . وأل فيها للجنس ، واللام فى قوله (للمتقين) للاختصاص .

أى : إن العاقبة الحسنة الطيبة فى الدنيا والآخرة ، للمتقين الذين صانوا أنفسهم عن كل مالا يرضى الله - تعالى - ، وليست لغيرهم ممن استحبوا العمى على الهدى .

والآية الكريمة تعقيب حكيم على قصة نوح - عليه السلام - قصد به الامتنان على النبى - صلى الله عليه وسلم - والموعظة ، والتسلية .

فالامتنان نراه فى قوله - تعالى - (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا) .

والموعظة نراها فى قوله - سبحانه - (فاصبر) .

والتسلية نراها فى قوله - عز وجل - (إن العاقبة للمتقين) .

وبعد ، فهذه قصة نوح — عليه السلام — كما وردت فى هذه السورة الكريمة ، ومن العبر والعظات والهدايات والحقائق التى نأخذها منها ما يأتى :

١ — الدلالة على صدق النبى — صلى الله عليه وسلم — فيما يبلغه عن ربه ، وعلى أن هذا القرآن من عند الله — تعالى — ، فقد أخبرنا عن قصة نوح — عليه السلام — مع قومه ، وعن غيرها من القصص ، التى هى من أنباء الغيب ، والتى لا يعلم حقيقتها وتفاصيلها أحد سوى الله — عز وجل — .

٢ - أن نوحا - عليه السلام - قد سلك في دعوته إلى الله - تعالى - أحسن الأساليب وأحكمها ، فقد دعا قومه إلى عبادة الله - تعالى - وحده في الليل وفي النهار . وفي السر وفي العلانية ، وأقام لهم ألوانا من الأدلة على صدقه ، ورغبهم في الإيمان بشتى ألوان الترغيب ، وحذرهم من الكفر بشتى أنواع التحذير ، وصبر على أذاهم صبرا جميلا ، ورد على سفاهاتهم وأقوالهم بمنطق سليم ، أبطل به حججهم ... مما جعلهم يكفون عن مناقشته ، ويلجأون إلى التحدي والتعنت ...

وما أحوج الدعاة إلى الله - عز وجل - إلى التماس العبرة والعظة من قصة نوح مع قومه .

٣ - أن النسب مهما شرف وعظم ان ينفع صاحبه عند الله ، إلا إذا كان معه الإيمان والعمل الصالح ، وأن الإيمان والصلاح ليسا مرتبطين بالوراثة والأنساب لأنه لو كان الأمر كذلك لكانت ذرية نوح ومن معه من المؤمنين الذين نجوا معه في السفينة . كلها من المؤمنين الصالحين ، مع أن المشاهد غير ذلك .

ورحم الله الإمام القرطبي فقد قال - ما ملخصه - عند تفسيره لقوله - تعالى - (قال يانوح إنه ليس من أهلك ...) : (وفي هذه الآية تسلية للآباء في فساد أبنائهم وإن كان الآباء صالحين ، فقد روى أن ابنا لمالك بن أنس ارتكب أمرا لا يليق بمسلم ، نعلم بذلك مالك فقال : (الأدب أدب الله ، لا أدب الآباء والأمهات ، والخير خير الله ، لا خير الآباء والأمهات ... » [1] .

٤ - أن سؤال نوح - عليه السلام - ما سأله لابنه لم يكن - كما قال صاحب المنار - معصية لله - تعالى ، خالف فيها أمره أو نهيه ، وإنما كانت خطأ في اجتهاد رأي بنية صالحة .

وإنما عدها الله - تعالى - ذنبا له لأنها كانت دون مقام العلم الصحيح اللائق بمنزلته من ربه . هبطت بضعفه البشري ، وما غرس في الفطرة من الرحمة

---

(١) [illegible]

والرأفة بالأولاد إلى إتباع الظن . ومثل هذا الاجتهاد لم يعصم منه الأنبياء ، فيقعون فيه أحيانا ليشعروا بحاجتهم إلى تأديب ربهم وتكميله إياهم آنا بعد آن، بما يصعدون به فى معارج العرفان »[1] .

٥ - إن القرآن فى إيراد القصص والأخبار ، لايهتم إلا بإبراز النافع المفيد منها ، أما ماعدا ذلك مالافائدة من ذكره ، فيهمل القرآن الحديث عنه .

فمثلا فى قصة نوح - عليه السلام - هنا ، لم يتعرض القرآن لبيان المدة التى قضاها نوح فى صنع السفينة ، ولا لبيان طول السفينة وعرضها وارتفاعها ، ولا لتفاصيل الأنواع التى حملها معه فى السفينة ، ولا لبيان الفترة التى عاشها نوح ومن معه فيها ...

ولا لبيان المكان الذى هبط فيه نوح بعد أن استوت السفينة على الجودى ... ولا لبيان الزمان الذى استغرقه الطوفان فوق الأرض ..

وما ورد فى ذلك من أقوال وأخبار ، أكثرها من الإسرائيليات التى لايؤيدها دليل من الشرع أو العقل .

ومن المسائل التى تكلم عنها كثير من العلماء ، وذهبوا بشأنها مذاهب شتى مسألة الطوفان .

وقد أصدر الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - رحمه الله - فتوى فى هذا الشأن ، ملخصها كما يقول صاحب المنار : أن ظواهر القرآن والأحاديث أن الطوفان كان عاما شاملا لقوم نوح الذين لم يكن فى الأرض غيرهم فيجب اعتقاده ، ولكنه لايقتضى أن يكون عاما للأرض ، إذ لا دليل على أنهم كانوا يملؤون الأرض ...

وهذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن ، ولذلك لم يبينها بنص قطعى ، فنحن نقول بما تقدم إنه ظاهر النصوص ، ولا نتخذه عقيدة دينية قطعية ، فإن أثبت العلم خلافه لايضرنا ، لأنه لاينقض نصا قطعيا عندنا)[2] .

---

(١) تفسير المنار جـ ١٢ ص ٨٦ (٢) تفسير المنار جـ ١٢ ص ١٠٨

٦ — أن سنة الله - تعالى - فى خلقه لاتتخلف ولاتتبدل وهى أن العاقبة للمتقين ، مهما طال الصراع بين الحق والباطل ، وبين الأخيار والأشرار .

فلقد مكث - عليه السلام - فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، وقد لقى خلال تلك المدة الطويلة مالقى من الأذى ... ولـكن كانت النتيجة فى النهاية نجاته ومن معه من المؤمنين ، وإغراق أعدائه بالطوفان العظيم .

ولقد أفاض صاحب الظلال - رحمه الله - وهو سيتحدث عن هذا المعنى فقال ماملخصة : (ثم نقف الوقفة الأخيرة مع قصة نوح ، لنرى قيمة الحفنة المسلمة فى ميزان الله - سبحانه - .

إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح - عليه السلام - تذكر بعض الروايات ، أنهم اثنا عشر،هم كانوا حصيلة دعوة نوح فى ألف سنة إلا خمسين عاما ...

إن هذه الحفنة ، - وهى ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل - ، استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون ، وأن يجرى لها ذلك الطوفان الذى يغمر كل شىء .... وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هى وارثة الأرض بعد ذلك ، وبذرة العمران فيها ...

وهذه هى عبرة الحادث الكونى العظيم ..

إنه لاينبغى لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام ، أن يظن أن الله تارك للجاهلية وهو يدعو إلى إفراد الله - سبحانه - بالربوبية . كما أنه لاينبغى له أن يقيس قوته الذاتية إلى قوى الجاهلية فيظن أن الله تاركه لهذه القوى ، وهو عبده الذى يستنصر به حين يغلب فيدعوه : (أنى مغلوب فانتصر) .

إن القوى فى حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة .. إن الجاهلية تملك قواها .. ولـكن الداعى إلى الله يستند إلى قوة الله . والله يملك أن يسخر بعض القوى الكونية - حينما يشاء وكيفما يشاء - ، وأيسر هذه القوى يدمر على الجاهلية من حيث لاتحتسب !! ....

والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملا ، ثم يتركوا الأمور لله فى طمأنينة وثقة . وعندما يغلبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين ، وأن يجأروا إليه وحده كما جأر عبده الصالح نوح : (فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر) . . .

ثم عليهم أن ينتظروا فرج الله القريب ، وانتظار الفرج من الله عباده ، فهم على هذا الانتظار مأجورون . . . . . والعاقبة للمتقين)[1] .

ثم تابعت السورة الكريمة حديثها عن قصة هود ـ عليه السلام ـ مع قومه، بعد حديثها عن قصة نوح ـ عليه السلام ـ مع قومه ، فقال ـ تعالى ـ :

« وإلَى عادٍ أخاهُم هُوداً ، قال يا قومِ اعبدُوا اللهَ ما لكم من إلَهٍ غيرُه ، إنْ أنتم إلا مُفتَرُونَ (٥٠) ياقومِ لا أسألكُم عليه أجراً ، إنْ أجرِىَ إلا على الذى فطرَنِى أفلاَ تعقِلُون (٥١) وياقومِ استغفِرُوا ربكُم ثمَّ توبوا إليه يُرْسِلِ السماء عليكُمْ مِدْراراً ويزِدْكُم قوةً إلى قوتِكُم ولا تتولّوا مجرِمين (٥٢) قالُوا يا هودَ ما جئتنَا ببيِّنةٍ، وما نحن بتارِكِى آلهتِناَ عن قولِكَ وما نحنُ لك بمؤمنين (٥٣) إنْ نقولُ إلا اعتراكَ بعضُ آلهتِناَ بسوء ، قال إنى أُشهِدُ اللهَ واشهـدُوا أني برىءٌ مما تُشرِكونَ (٥٤) من دُونِه فكيدُونِى جميعاً ثم لا تُنظِرُون (٥٥) إنى توكلتُ على اللهِ ربِّى وربكُم ما منْ دابةٍ إلا هو آخذٌ بناصيتِها ، إنَّ ربِّى على صراطٍ مستقيم (٥٦) فإن تولَّوْا فقد أَبلَغتكُم ما أُرسِلتُ به إليكُم ويَستخلِفُ ربِّى قوماً غيركُم ولا تضُرُّونَه شيئاً ، إنّ ربِّى على كلِّ شىءٍ حفيظٌ (٥٧) ولمَّا جاء أمرُنا نجينا هوداً والذينَ آمنُوا معَهُ برحمةٍ

(١) فى ظلال القرآن ج ١٢ ص ٨٥ للأستاذ سيد قطب .

منًّا ، ونجيناهُم من عذابٍ غليظٍ (٥٨) وتلك عادٌ جحدوا بآياتِ ربّهم وعصَوْا رُسُلَه واتبعُوا أَمْرَ كُلِّ جبارٍ عنيد (٥٩) وأُتبِعُوا فى هذهِ الدنيا لعنةً ويومَ القيـامَةِ . ألاَ إنَّ عاداً كفرُوا ربَّهم ، ألاَ بُعْدًا لعادٍ قوم هودٍ (٦٠) » .

تلك هى قصة هود ـ عليه السلام ـ مع قومه كما حكتها هذه السورة ، وقد وردت قصته معهم فى سور أخرى منهـا : سورة الأعراف ، والشعراء ، والأحقاف ...

وينتهى نسب هود إلى نوح ـ عليهما السلام ـ فهو ـ كما قال بعض المؤرخين ـ : هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوض بن إرم بن سام ابن نوح)[1] .

وقومه هم قبيلة عاد ـ نسبة إلى أبيهم الذى كان يسمى بهذا الاسم ـ ، وكانت مساكنهم بالأحقاف ـ جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل ـ ، وهذا المكان يسمى الآن بالربع الخالى جنوب الجزيرة العربية .

وكان قوم هود ـ عليـه السلام ـ يعبدون الأصنام ، فأرسله الله إليهم لهدايتهم .

ويقال إن هودا ـ عليه السلام ـ قد أرسله الله إلى عاد الأولى ، أما عاد الثانية فهم قوم صالح ، وبينهما زهاء مائة سنة .

وقوله ـ سبحانه ـ : « وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ... » معطوف على قصة نوح التى سبق الحديث عنها .

أى : وكما أرسلنا نوحا إلى قومه ليأمرهم بعبادة الله وحده ، أرسلنا إلى

---

(١) قصص الأنبياء ص ٥٠ لفضيلة الشيخ عبد الوهاب البخار .

قبيلة عاد أخاهم هوداً ، فقال لهم ماقاله كل نبي لقومه : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره .

ووصفه ـ سبحانه ـ بأنه « أخاهم » لأنه من قبيلتهم فى النسب ، أو لأنه أخوهم فى الإنسانية وناداهم بقوله : «ياقوم» زيادة فى التلطف معهم ، إستجلاباً لقلوبهم ، وترضيه لنفوسهم ، وجملة « مالكم من إله غيره » فى معنى العلة لما قبله .

أى : أنا آمركم بعبادة الله وحده ، لأنه ليس هناك إله آخر يستحق العبادة سواه ، فهو الذى خلقكم ورزقكم ، وهو الذى يحييكم ويميتكم ...

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية بقوله : « إن أنتم إلا مفترون » .

والافتراء : الكذب المتعمد الذى لاشبهة لصاحبه فى النطق به .

أى : ما أنتم إلا متعمدون للكذب فى جعلكم الألوهية لغير الله ـ تعالى .

ثم بين لهم بعد ذلك أنه لا يريد منهم جزاء ولا شكورا فى مقابل دعوته إياهم إلى الحق فقال : « وياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى .... »

وفطرنى : أى خلقنى وأبدعنى على غير مثال سابق . يقال : فطر الأمر أى : ابتدأه وأنشأه . وفطر الله الخلق : أى خلقهم وأوجدهم . وأصل الفطر الشق ، ثم استعمل فى الخلق والإنشاء مجازا .

والمعنى : وياقوم لا أريد منكم على ما أدعوكم إليه أجرا منكم ، وإنما أجرى تكفل به الله الذى خلقنى بقدرته ، فهو وحده الذى أطلب منه الأجر والعطاء ...

ومقصده من هذا القول ، إزالته ماعسى أن يكون قد حاك فى نفوسهم من أنه مادعاهم إلى مادعاهم إليه ، إلا لأنه رجل يبتغى منهم الأجر الذى يجعله موسرا فيهم ...

والهمزة فى قوله « أفلا تعقلون » للإستفهام الإنكارى ، وهى داخله على محذوف .

أى : أتجهلون ماهو واضح من الأمور ، فلا تعقلون أن أجر الناصحين المخلصين ، إنما هو من الله ـ تعالى ـ رب العالمين ورازقهم .

ثم أرشدهم إلى مايؤدى إلى زيادة غناهم وقوتهم ، وحذرهم من سوء عاقبة البطر والأشر فقال: «وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين » .

والاستغفار : طلب المغفرة من الله ـ تعالى ـ وعدم المؤاخذة على الخطايا.

والتوبة : العزم على الإقلاع عن الذنب ، مع الندم على ماحصل منه فى الماضى.

أى : ويا قوم استغفروا ربكم مما فرط منكم من شرك وعصيان ، ثم عودوا إليه بالتوبة الصادقة النصوح .

وثم هنا للترتيب الرتبى ، لأن الإقلاع عن الذنب مع المداومة على ذلك، مقدم على طلب المغفرة .

وجملة « يرسل السماء عليكم مدرارا » جواب الأمر فى قوله «استغفروا» .

والمراد بالسماء هنا السحاب أو المطر ، تسمية للشىء باسم مصدره .

ومدرارا : مأخوذ من الدر أى : سيلات اللبن وكثرته . ثم استعير للمطر الغزير . يقال : درت السماء بالمطر تدر وتدر درا ... إذا كثر نزول المطر منها .

وهو حال من السماء ، ولم يؤنث مع أنه حال من مؤنث ، باعتبار أن المراد بالسماء هنا المطر أو السحاب .

والمعنى : أن هودا ـ عليه السلام ـ قال لقومه ياقوم اعبدوا الله واستغفروه وتوبوا إليه . . . فإنكم إن فعلتم ذلك أرسل الله ـ تعالى ـ عليكم المطر غزيرا متتابعا فى أوقات حاجتكم إليه ، لتشربوا منه وتسقوا به دوابكم وزروعكم .

وجملة « ويزدكم قوة إلى قوتكم » معطوفة على ماقبلها .

أي : وأيضا إن فعلتم ذلك زادكم الله - تعالى - عزا إلى عزكم ، وشدة إلى شدتكم التي عرفتم بها ، ووهبكم الأموال الطائلة ، والذرية الكثيرة ...

قال الآلوسي : «رغبهم - عليه السلام - بكثرة المطر ، وزيادة القوة ، لأنهم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات . وقيل : حبس الله عنهم القطر وأعظم أرحام نسائهم ثلاث سنين ، فوعدهم هود على الاستغفار والتوبة كثرة الأمطار ، ومضاعفة القوة بالتناسل ... »(١)

ثم حذرهم من مقابلة نعم الله بالكفر والجحود فقال : «ولا تتولوا مجرمين» .
والتولي : هو الإعراض عن الشيء بإصرار وعناد .
أي : ولا تتولوا عما دعوتكم إليه وأنتم مصرون على ما أنتم عليه من إجرام وجحود وعناد .

وإلى هنا يكون هود - عليه السلام - قد وضح لقومه دعوته ، ورغبهم في الاستجابة لها ، وحذرهم من الإعراض عنها ، وناداهم بلفظ - ياقوم - ثلاث مرات ، ترددا إليهم ، وتذكيرا لهم بآصرة القرابة التي تجمعهم وإياه . لعل ذلك يستثير مشاعرهم ، ويحقق إطمأنانهم إليه ، فإن الرائد لايكذب أهله .
ولكن قوم هود - عليه السلام - قابلوا كل ذلك بالتطاول عليه ، والسخرية منه فقالوا : «قالوا ياهود ماجئتنا ببينة .....»

والبينة : مايتبين به الحق من الباطل . أي : قالوا له ياهود انك لم تجئنا بحجة تقنعنا بأنك على الحق فيما تدعوا اليه ، وترضى نفوسنا وطباعنا وعاداتنا ...
ثم أضافوا إلى ذلك قولهم : «وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك» .
أي : وما نحن بتاركي آلهتنا بسبب قولك لنا الخالي عن الدليل : اتركوا عبادتها واجعلوا عبادتكم لله وحده .

ثم أكدوا إصرارهم على كفرهم بقولهم «وما نحن بمؤمنين» أي : بمستجيبين لك ومصدقين .

(١) تفسير الآلوسي جـ ١٢ ص ٧٣

ثم أضافوا إلى إصرارهم هذا ، استخفافا به و بما يدعو إليه فقالوا : «إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء .... »

ومعنى اعتراك : أصابك ومسك . يقال عراه الأمله واعتراه أي أصابه . وأصله من قولهم : عراه يعروه ، أي : غشيه وأصابه . ومنه قول الشاعر :

وإني لتعروني لذكراك هزة ... أي تصيبني ..

أي : أي مانحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمتبعين، بل عليك أن تيأس يأسا تاما من استجابتنا لك ، وحالتك التي نراها بأعيننا تجعلنا نقول لك : إن سبك لآلهتنا جعل بعضها - لا كلها - يتسلط عليك ، ويوجه قدرته نحوك ، فيصيبك بالجنون والهذيان والأمراض ...

ولم يقولوا : «اعتراك آلهتنا بسوء» بل قالوا : «بعض آلهتنا» تهديدا له وإشارة إلى أنه لو تصدت له جميع الآلهة لأهلكته إهلاكا .

وهكذا نراهم قد ردوا على نبيهم ومرشدهم بأربعة ردود ، تدرجوا فيها من سيء إلى الأسوأ ، ومن القبيح إلى الأقبح .. مما يدل على توغلهم في الطغيان ، وبلوغهم النهاية في العناد والكفر والجحود

قال صاحب الكشاف ما ملخصه : (ان نقول الا اعتداك بعض آلهتنا بسوء ..)

أي : مسك بجنون لسبك اياها ، وصدك عنها ، وعداوتك لها ، مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء ، فمن ثم صرت تتكلم بكلام المجانين وتهذي بهذيان المبرسمين .....

ثم قال . وقد دلت ردودهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد ، لايبالون بالبهت ، ولا يلتفتون إلى النصح ، ولا تلين شكيمتهم للرشـــد .

وهذا الأخير دال على جهل مفرط ، وبله متناه ، حيث إعتقدوا في حجارة

أنها تنتصر وتنتقم ....) (١)

والآن وبعد أن إستمع هود — عليه السلام — إلى ردودهم القبيحة
ماذا كان موقفه منهم ؟

لقد كان موقفه منهم : موقف المتبريء من شركهم والمتحدى لطغيانهم
والمعتمد على الله — تعالى — وحده فى الإنتصار عليهم ، ولقد حكى القرآن
رده عليهم فقال :

(قال إنى أشهد الله وأشهدوا أنى بريء مما تشركون . من دونه ، فكيدونى
جميعا ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ما من دابة إلا هو آخذ
بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به
اليكم ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ، إن ربى على كل شيء
حفيظ) .

أي : قال هود — عليه السلام — للطغاة من قومه بعزة وثقة (إنى أشهد
الله) الذى لا رب سواه على براءتى من عبادتكم لغيره .

(وأشهدوا) أنتم أيضا على (أنى بريء مما تشركون من دونه)

أى : على براءتى من كل عبادة تعبدونها لغير الله - تعالى - لأنها عبادة
باطلة ، يحتقرها العقلاء ، ويتنزه عنها كل إنسان يحترم نفسه .

فأنت تراه فى هذه الآية الكريمة يعلن إحتقاره لآلهتهم ، وبراءته من
شركهم ، وإستخفافه بأصنامهم التى زعموا أن بعضها قد أصابه بسوء ، ويؤكد
هذه البراءه بإشهاد الله - تعالى - وإشهادهم .

وذلك كما يقول الرجل لخصمه إذا لم يبال به : أشهد الله وأشهدك :
أنى فعلت بك كذا وكذا ، وقلت فى حقك كذا وكذا . . . . فافعل أنت
ما بدا لك ! !

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٧٥

ثم ينتقل من براءته من شركهم ، إلى تحديهم بثقة واطمئنان فيقول : (فكيدوني جميعا ثم لاتنظرون)

أي : لقد أعلنت أمامكم بكل قوة ووضوح أني بريء من شرككم ، وها أنذا في مواجهتكم،فانضموا إلى آلهتكم ، وحاربوني بما شئتم من ألوان المحاربة والأذى بدون تريث أو إمهال ، فإني لن أكف عن الجهر بدعوتي ، ولن أتراجع عن احتقار الباطل الذي أنتم عليه .

وهذا — كما يقول صاحب الكشاف — من أعظم الآيات ، أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشا إلى إراقة دمه ، يرمونه عن قوس واحدة وذلك لثقته بربه ، وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالبهم . . . [1])

ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان السبب الذي دعاه إلى البراءة من شركهم،والى عدم المبالاة بهم فقال - كما حكى القرآن عنه - (إني توكلت على الله ربي وربكم . . . .)

أي : إني فوضت أمري الى الله الذي هو ربي وربكم ، ومالك أمري وأمركم ، والذي لايقع في هذا الكون شيء الا بإرادته ومشيئته .

وفي قوله : (ربي وربكم) مواجهة لهم بالحقيقة التي ينكرونها ، لإفهامهم أن انكارهم لا قيمة له ، وأنه انكار عن جحود وعناد . . . . فهو - سبحانه - ربهم سواء أقبلوا ذلك أم رفضوه . وقوله (مامن دابة الا هو آخذ بناصيتها) تصوير بديع لشمول قدرته - سبحانه - والأخذ : هو التناول للشيء عن طريق الغلبه والقهر .

والناصية : منبت الشعر في مقدم الرأس ، ويطلق على الشعر النابت نفسه .

قال الإمام الرازي : واعلم أن العرب اذا وصفوا انسانا بالذلة والخضوع قالوا : ما صية فلان الا بيد فلان . أي أنه مطيع له ، لأن كل من أخذت

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٢ ص ٢٧٦

بناصيته فقد قهرته . وكانوا اذا أسروا أسيرا وأرادوا اطلاقه جزوا ناصيته ليكون ذلك علامة لقهره فخوطبوا فى القرآن بما يعرفون ....) (١)

والمعنى : انى اعتمدت على الله ربى وربكم : ما من دابة تدب على وجه الأرض الا والله ـ تعالى ـ مالكها وقاهر لها ، وقادر عليها ، ومتصرف فيها كما يتصرف المالك فى ملكه .

وفى هذا التعبير الحكيم صورة حسية بديعة تناسب المقام ، كما تناسب غلظة قوم هود وشدتهم . وصلابة أجسامهم وبنيتهم ، وجفاف حسهم ومشاعرهم ... فكأنه ـ عليه السلام ـ يقول لهم : انكم مهما بلغتم من القوة والبطش ، فما أنتم الا دواب من تلك الدواب التى يأخذ ربى بناصيتها ، ويقهرها بقوته قهراً يهلكها ـ اذا شاء ذلك ـ فكيف أخشى دوابا مثلكم مع توكلى على الله ربى وربكم ؟ ! !

ثم يتبع هذا الوصف الدال على شمول قدرة الله ـ تعالى ـ بوصف آخر يدل على عدالته وتنزهه عن الظلم فيقول : (ان ربى على صراط مستقيم)

أى : ان ربى قد اقتضت سنته أن يسلك فى أحكامه طريق الحق والعدل وما دام الأمر كذلك فلن يسلطكم على لأنه ـ حاشاه ـ أن يسلط من كان متمسكا بالباطل ، على من كان متمسكا بالحق .

واكتفى هنا بإضافة الرب إلى نفسه ، للاشارة إلى أن لطفه ـ سبحانه ـ يشمل هودا وحده ولا يشملهم ، لأنهم أشركوا معه فى العبادة آلهة أخرى .

ثم ختم هود ـ عليه السلام ـ رده على قومه ، بتحذيرهم من سوء عاقبة إصرارهم على كفرهم فقال : (فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به اليكم ...)

أى : فإن تتولوا عن دعوتى ، وتعرضوا عن الحق الذى جئتكم به من عند ربى . فتكون عاقبتكم خسرا ، وأمركم فرطا .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٧ ص ١٣

أما أنا فقد أديت واجبي ، وأبلغتكم ما أرسلت به إليكم من عند ربى بدون تكاسل أو تقصير : وقوله (ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا) وعيد لهم بإهلاكهم وإحلال غيرهم محلهم .
أي : وهو — سبحانه — سيهلككم بسبب إصراركم على كفركم فى الوقت الذى يشاؤه ، ويستخلف من بعدكم قوما آخرين سواكم ، يرثون دياركم وأموالكم ، ولن تضروا الله شيئا من الضرر بسبب إصراركم على كفركم ، وإنما أنتم الذين تضرون أنفسكم بتعريضها للدمار فى الدنيا ، وللعذاب الدائم فى الآخرة .

وقوله : « إن ربي على كل شيء حفيظ » أي : إن ربى قائم على كل شيء بالحفظ والرقابة والهيمنة ، وقد اقتضت سنته — سبحانه — أن يحفظ رسله وأولياءه ، وأن يخذل أعداءه .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد ساقت لنا بأسلوب بليغ حكيم ، جانبا من الحوار الذى دار بين هود وقومه وهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده ، فماذا كانت نتيجة هذا الحوار والجدال ؟
لقد كانت نتيجته إنجاء هود والذين آمنوا معه ، وإهلاك أعدائهم .
قال — تعالى — « ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ ، وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود .

والمراد بالأمر فى قوله — سبحانه — « ولما جاء أمرنا » الأمر بنزول العذاب بهم .
أي : وحين جاء أمرنا بتحقيق وعيدنا فى قوم هود ، وبتنفيذ ما أردناه من إهلاكهم وتدميرهم « نجينا هودا والذين آمنوا معه » نتيجة مصحوبة « برحمة » عظيمة كائنة « منا » بسبب إيمانهم وعملهم الصالح .

«ونجيناهم» كذلك «من عذاب غليظ» أى: من عذاب ضخم شديد مضاعف ترك هؤلاء الطغاة وراءه صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

ووصف العذاب بأنه غليظ، بهذا التصوير المحسوس، يتناسب كل التناسب مع جو هذه القصة، ومع ماعرف عنه قوم من ضخامة فى الأجسام، ومن تفاخر بالقوة..

قال - تعالى - «فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ...»(١)

وكان عذابهم كما جاء فى آيات أخرى بالريح العقيم، ومن ذلك قوله - تعالى - «وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية..»

واسم الإشارة فى قوله - سبحانه - «وتلك عاد ...» يعود إلى القبيلة أو إلى آثارهم التى خلفوها من بعدهم. أى: وتلك هى قصة قبيلة عاد مع نبيها هود - عليه السلام - وتلك هى عاقبتها وكانت الإشارة للبعيد تحقيرا لهم، وتهوينا من شأنهم بعد أن انتهوا، وبعدوا عن الأنظار والأفكار، وقد كانوا يقولون: من أشد منا قوة..

وقوله: «جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله، واتبعوا أمر كل جبار عنيد ...» بيان لجرائمهم التى استحقوا بسببها العذاب الغليظ.

والجحد: الإنكار الشديد للحق الواضح.

وآيات ربهم: الحجج والبراهين التى جاء بها الأنبياء من ربهم للدلالة على صدقهم.

والجبار: هو الشخص المتعالى المتعاظم على الناس، المترفع عن الاستجابة للحق.

---

(١) سورة فصلت الآية ١٥

والعنيد : المعاند الطاغي الذى يعرف الحق ولكنه لا يتبعه .

أى : وتلك هى قصة قبيلة عاد مع نبيها ، كفروا بآيات ربهم الدالة على صدق أنبيائه ، وعصوا رسله الذين جاءوا لهدايتهم ، واتبع سفلتهم وعوامهم أمر كل رئيس متجبر متكبر معاند منهم ، بدون تفكر أو تدبر .

وقال ـ سبحانه ـ « وعصوا رسله » مع أنهم قد عصوا رسولا واحدا هو هود ـ عليه السلام ـ ، للإشارة إلى أى معصيتهم لهذا الرسول كأنها معصية للرسل جميعا ، لأنهم قد جاءوا برسالة واحدة فى جوهرها وهى : عبادة الله ـ تعالى ـ وحده ، والتقيد بأوامره ونواهيه .

والإشارة أيضا إلى ضخامة جرائمهم ، وإبراز شناعتها حيث عصوا رسلا لا رسولا :

وقد وصفهم ـ سبحانه ـ فى هذه الآية بثلاث صفات هى أعظم الصفات فى القبح والشناعة : أولها : جحودهم لآيات ربهم . وثانيها : عصيانهم لرسله . وثالثها : اتباعهم أمر رؤسائهم الطغاة .

ثم ختم ـ سبحانه ـ قصتهم مع نبيهم فى هذه السورة بقوله : « واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة .... »

والاتباع : اقتفاء أثر الشيء بحيث لا يفوته . يقال : اتبع فلان فلانا إذا اقتفى أثره لكى يدركه أو يسير على نهجه .

واللعنه : الطرد بإهانة وتحقير .

أى : أنهم هلكوا مشيعين ومتبوعين باللعن والطرد من رحمة الله فى الدنيا والآخرة .

وقوله : « ألا ان عادا كفروا ربهم ، ألا بعدا لعاد قوم هود » تسجيل لحقيقة حالهم ، ودعاء عليهم بدوام الهلاك ، وتأكيد لسخط الله عليهم .

أى : ألا ان قوم عاد كفروا بنعم ربهم عليهم ، ألا سحقا وبعدا لهم عن

رحمة الله ، جزاء جحودهم للحق ، وإصرارهم على الكفر ، واستحبابهم العمى على الهدى .

وتكرير حرف التنبيه «ألا» وإعادة لفظ «عاد» للمبالغة فى تهويل حالهم وللحض على الاعتبار والاتعاظ بمآلهم .

هذا ، ومن العبر البارزة فى هذه القصة :

١ ــ أن الداعى إلى الله ، عليه أن يذكر المدعوين بما يستثير مشاعرهم ، ويحقق إطمئنانهم إليه ، ويرغبهم فى اتباع الحق ، ببيان أن اتباعهم لهذا الحق سيؤدى إلى زيادة غناهم وقوتهم وأمنهم وسعادتهم . . . .

وأن الانحراف عنه سيؤدى إلى فقرهم وضعفهم وهلاكهم . . . .

انظر إلى قول هود ـ عليه السلام ـ : « ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين» .

٢ ــ وأن الداعى إلى الله ـ تعالى ـ عندما يخلص لله دعوته ، ويعتمد عليه ـ سبحانه ـ فى تبليغ رسالته ، ويغار عليها كما يغار على عرضه أو أشد . . .

فإنه فى هذه الحالة سيقف فى وجه الطغاة المناوئين للحق ، كالطود الأشم ، دون مبالاة بتهديدهم ووعيدهم . . . لأنه قد آوى إلى ركن شديد .

وهذه العبرة من أبرز العبر فى قصة هود عليه السلام ـ

ألا تراه وهو رجل فرد يواجه قوما غلاظا شدادا طغاة ، إذا بطشوا بطشوا جبارين ، يدلون بقوتهم ويقولون فى زهو وغرور : من أشد مناقوة .

ومع كل ذلك عندما يتطاولون على عقيدته ؛ ويراهم قد أصروا على عصيانه . يواجههم بقوله : « إنى أشهد الله وأشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدنى جميعا ثم لا تنظرون . . »

أرأيت كيف واجه هودا - عليه السلام - هؤلاء الغلاظ الشداد بالحق الذى يؤمن به دون مبالاة بوعيدهم أو تهديدهم . . ؟

وهكذا الإيمان بالحق عندما يختلط بالقلب . . . . يجعل الإنسان يجهر به دون أن يخشى أحداً إلا الله - تعالى -

ثم واصلت السورة الكريمة حديثها عن قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم فتحدثت عن قصة صالح - عليه السلام - مع قومه ، فقال - تعالى -

« وإلى ثمودَ أخاهُم صالحاً قال يا قوم اعبدُوا اللهَ مالكُم من إلهٍ غيرُه ، هو أنشأكُم من الأرضِ واستعمرَكُم فيها ، فاستغفِرُوهُ ثم توبُوا إليه إنّ ربّى قريبٌ مجيبٌ (٦١) قالُوا يا صالحُ قد كنتَ فينا مَرْجُواً قبلَ هذَا ، أتنهانَا أن نعبدَ ما يعبُدُ آباؤُنا وإنّنَا لفِي شَكٍّ ممـا تدعونَا إليه مُريبٌ (٦٢) قال يا قومِ أرأيتُم إن كنتُ على بينـةٍ من ربّى ، وآتانِي منه رحمةً فمن ينصرُنِي من اللهِ إنْ عصيتُه فما تزيدُونَنِي غير تخسير (٦٣) ويا قومِ هذه ناقةُ اللهِ لكم آيةً ، فذرُوها تأكلْ فى أرضِ اللهِ ولا تمسُّوها بسوءٍ فيأخذَكُم عذابٌ قريبٌ (٦٤) فعقرُوها فقال تمتَّعُوا فى دارِكُم ثلاثةَ أيامٍ ذلك وعدٌ غيرُ مكذوبٍ (٦٥) فلمّا جاء أمرُنَا نجينَا صالحاً والذينَ آمنُوا معَهُ برحمةٍ منَّـا ومِنْ خزىِ يَوْمَئِذٍ ، إنّ ربَّك هو القوىُّ العزيزُ (٦٦) وأخذَ الذينَ ظلمُوا الصيحةَ فأصبحُوا فى ديارِهِمْ جاثمينَ (٦٧) كأنْ لم يغنَوْا فيها ، ألا إنّ ثمودَ كفرُوا ربَّهم ألاَ بُعداً لثمُود (٦٨) »

هذه قصة صالح - عليه السلام - مع قومه كما ذكرتها هذه السورة ، وقد وردت هذه القصة فى سور أخرى منها سورة الأعراف ، والشعراء ، والنمل ، والقمر . .

وصالح ـ عليه السلام ـ ينتهى نسبه إلى نوح ـ عليه السلام ـ فهو صالح بن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود ... بن نوح .

وثمود : إسم للقبيلة التى منها صالح ، سميت باسم جدها ثمود ، وقيل سميت بذلك لقلة مائها ، لأن الثمد هو الماء القليل .

وكانت مساكنهم بالحجر ـ بكسر الحاء وسكون الجيم ـ وهو مكان يقع بين الحجاز والشام إلى وادى القرى ، وموقعه الآن ـ تقريبا ـ المنطقة التى بين الحجاز وشرق الأردن ، وما زال المكان الذى كانوا يسكنونه يسمى بمدائن صالح حتى اليوم ...

وقبيلة صالح من القبائل العربية ، وكانوا خلفاء لقوم هود ـ عليه السلام فقد قال ـ سبحانه ـ : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا ، وتنحتون الجبال بيوتا ... » [1]

وكانوا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله ـ تعالى ـ اليهم صالحا ليأمرهم بعبادة الله وحدة .

وقوله : « وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ... » معطوف على ما قبله من قصتى نوح وهود ـ عليهما السلام ـ

أى : وأرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم فى النسب والموطن صالحا ـ عليه السلام فقال لهم تلك الكلمة التى قالها كل نبى لقومه : ياقوم اعبدوا الله وحده ، فهو الإله الذى خلقكم ورزقكم ، وليس هناك من إله سواه يفعل ذلك .

ثم ذكرهم بقدرة الله ـ تعالى ـ وبنعمه عليهم فقال : « هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »

والإنشاء : الإيجاد والإحداث للشىء على غير مثال سابق .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٤

واستعمركم من الإعمار ضد الخراب فالسين والتاء للمبالغة . يقال : أعمر فلان فلانا فى المكان واستعمره ، أى جعله يعمره بأنواع البناء والغرس والزرع . . .

أى : اعبدوا الله - تعالى - وحده ، لأنه - سبحانه - هو الذى ابتدأ خلقكم من هذه الأرض ، وأبوكم آدم ما خلق إلا منها وهو الذى جعلكم المعمرين لها ، والساكنين فيها « تتخذون من سهولها قصوراً ، وتنحتون الجبال بيوتا . . . »

قال - تعالى - فى شأنهم . « أتتركون فيما هاهنا آمنين . فى جنات وعيون . وزروع ونخل طلعها هضيم . وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين . فاتقوا الله وأطيعون . » (١)

فأنت ترى أن صالحا - عليه السلام - قد ذكرهم بجانب من مظاهر قدرة الله ومن أفضاله عليهم ، لكى يستميلهم إلى التفكير والتدبر ، وإلى تصديقه فيما يدعوهم اليه .

والفاء فى قوله « فاستغفروه ثم توبوا اليه » للتفريع على ماتقدم .

أى : إذا كان الله - تعالى - هو الذى أنشأكم من الارض واستعمركم فيها فعليكم أن تخلصوا له العبادة . وأن تطلبوا مغفرته عما سلفه منكم من ذنوب ثم تتوبوا إليه توبة صادقة ، تجعلكم تندمون على ماكان منكم فى الماضى من شرك وكفر ، وتعزمون على التمسك بكل ما يرضى الله - تعالى - فى المستقبل .

ثم فتح أمامهم باب الأمل فى رحمة الله - تعالى - فقال : « إن ربى قريب مجيب » .

---

(١) سورة الشعراء الآيات من ١٤٦ - ١٥٠

أى : إن ربى قريب الرحمة من المحسنين ، مجيب لدعاء الداعين المخلصين ، فاقبلوا على عبادته وطاعته ، ولا تقنطوا من رحمة الله .

ثم حكى القرآن ما رد به قوم صالح عليه فقال : « قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا .. »

أى : قال قوم صالح له بعد أن دعاهم لما يسعدهم : يا صالح لقد كنت فينا رجلا فاضلا نرجوك لمهمات الأمور فينا لعلمك وعقلك وصدقك ... قبل أن تقول ما قلته ، أما الآن وبعد أن جئتنا بهذا الدين الجديد فقد خاب رجاؤنا فيك ، وصرت فى رأينا رجلا مختل التفكير ...

فالإشارة فى قوله « قبل هذا » إلى الكلام الذى خاطبهم به حيث بعثه الله إليهم .

والاستفهام فى قولهم « أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا للتعجيب والإنكار .

أى : أجئتنا بدعوتك الجديدة لتنهانا عن عبادة الآلهة التى كان يعبدها آباؤنا من قبلنا ؟

لا ، إننا لن نستجيب لك ، وإنما نحن قد وجدنا آباءنا على دين وإنا على آثارهم نسير .

ثم ختموا ردهم عليه بقولهم : « وإننا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب » .

ومريب : اسم فاعل من أراب . تقول : أربت فلانا فأنا أريبه ، إذا فعلت به فعلا يوجب لديه الريبة أى : القلق والاضطراب .

أى : لن نترك عبادة الأصنام التى كان يعبدها آباؤنا ، وإننا لفى شك كبير ، وريب عظيم من صحة ما تدعونا إليه .

فانظر كيف قابل هؤلاء السفهاء الدعوة إلى الحق بالتصميم على الباطل ، ولكن صالحا ـ عليه السلام ـ لم ييأس بل يرد عليهم بأسلوب حكيم فيقول :

« قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ، فما تزيدوننى غير تخسير »

أي قال صالح – عليه السلام – لقومه : يا قوم أخبروني إن كنت على حجة واضحة من ربي ومالك أمري .

وآتاني منه رحمة ، أي : وأعطاني من عنده لا من عند غيره رحمة عظيمة حيث اختارني لحمل رسالته . وتبليغ دعوته .

وجملة « فمن ينصرني من الله إن عصيته » جواب الشرط وهو قوله « إن كنت على بينة ... »

أي : إذا كان الله – تعالى – قد منحني كل هذه النعم . وأمرني بأن أبلغكم دعوته ، فمن ذا الذي يجيرني ويعصمني من غضبه , إذا أنا خالفت أمره أو قصرت في تبليغ دعوته ، احتفاظا برجائكم في ، ومسايرتي لكم في باطلكم؟

لا ، إنني سأستمر في تبليغ ما أرسلت به إليكم ، ولن يمنعني عن ذلك ترغيبكم أو ترهيبكم .

وقوله « فما تزيدونني غير تخسير » تصريح منه بأن ما عليه هو الحق الذي لا يقبل الشك أو الريب ، وأن مخالفته توصل إلى الهلاك والخسران .

والتخسير : مصدر خسر . يقال خسر فلان فلانا إذا نسبه إلى الخسران .

أي : فما تزيدونني بطاعتكم ومعصية ربي غير الوقوع في الخسران ، وغير التعرض لعذاب الله وسخطه , وحاشاي أن أخالف أمر ربي إرضاء لكم ...

فالآية الكريمة تصور تصويرا بليغا ما كان عليه صالح - عليه السلام - من إيمان عميق بالله - تعالى - ، ومن ثبات على دعوته , ومن حرص على طاعته – سبحانه –

ثم أرشد صالح – عليه السلام – إلى المعجزة الدالة على صدقه فيما يبلغه عن ربه فقال :

« ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ... » أي : معجزة واضحة دالة على صدقي وفي إضافة الناقة إلى الله – تعالى – تعظيم لها وتشريف لحالها ، وتنبيه على

أنها ناقة مخصوصة ليست كغيرها من النوق التي تستعمل فى الركوب والنحر وغيرهما. لأن الله - تعالى - قد جعلها معجزة لنبيه صالح - عليه السلام - ولم يجعلها كغيرها.

وقد ذكر بعض المفسرين من صفات هذه الناقة وخصائصها . ما لا يؤيده نقل صحيح ، لذا أضربنا عن كل ذلك صفحا ، ونكتفى بأن نقول : بأنها كانت ناقة ذات صفات خاصة مميزة ، تجعل قوم صالح يعلمون عن طريق هذا التمييز لها عن غيرها أنها معجزة دالة على صدق نبيهم - عليه السلام - فيما يدعوهم إليه .

وقوله : « فذروها تأكل فى أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب » أمر لهم بعدم التعرض لها بسوء وتحذير لهم من نتائج مخالفة أمره.

أي : اتركوا الناقة حرة طليقة تأكل فى أرض الله الواسعة، ومن رزقه الذي تكفل به لكل دابة ، واحذروا أن تمسوها بشيء من السوء مهما كان قليلا ، فإنكم لو فعلتم ذلك عرضتم أنفسكم لعذاب الله العاجل القريب .

والتعبير بقوله « فيأخذكم» بفاء التعقيب وبلفظ الأخذ ، يفيد سرعة الأخذ وشدته ، لأن أخذه - سبحانه - أليم شديد .

ولكن قوم صالح - عليه السلام - لم يستمعوا إلى تحـــذيره ، بل قابلوه بالطغيان والعصيان ، « فعقروها » أي : فعقروا الناقة « وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين »(١) .

والفاء معطوفة على محذوف : أي فخالفوا ما نهاهم عنه نبيهم فعقروها أي نحروها

وأصل العقر : قطع عرقوب البعير، ثم استعمل فى النحر لأن ناحر البعير يعقله ثم ينحره فقال لهم صالح - عليه السلام - بعد عقرها « تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب » .

---

(١) سورة الأعراف الآية ٧٧

والتمتع : الانتفاع بالمتاع ، وهو اسم لما يحتاج اليه الإنسان في هذه الحياة من مأكل ومشرب وغيرهما .

والمراد بدارهم : أماكن سكناهم التي يعيشون فيها .

أي : قال لهم نبيهم بعد نحرهم للناقة : عيشوا في بلدكم هذا ، متمتعين بما فيه من نعم لمدة ثلاثة أيام ، فقط ، فهي آخر ما بقي لكم من متاع هذه الدنيا ، ومن أيام حياتكم .

« ذلك » الوعد بنزول العذاب بكم بعد هذه المدة القصيرة .

« وعد غير مكذوب » فيه لأنه صادر من الله ـ تعالى ـ الذي لا يخلف وعده.

وعبر عن قرب نزول العذاب بهم بالوعد على سبيل التهكم بهم .

قال الجمل : « ومكذوب » يجوز أن يكون مصدرا على وزن مفعول ، وقد جاء من ألفاظ نحو : المجلود والمنقول والمنشور والمغبون ، ويجوز أن يكون اسم مفعول على بابه وفيه تأويلان: أحدهما : غير مكذوب فيه ، ثم حذف حرف الجر فاتصل الضمير مرفوعا مستترا في الصفة ومثله: يوم مشهود. والثاني: أنه جعل هو نفسه غير مكذوب ، لأنه قد وفى به ، وإذا وفى به فقد صدق »(1)

ولقد تحقق ما توعدهم به نبيهم ، فقد حل بهم العذاب في الوقت الذي حدده لهم ، قال ـ تعالى ـ « فلما جاء أمرنا » أي : فلما جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم في الوقت المحدد .

« نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا » أي برحمة عظيمة كائنة منا .

ونجيناهم أيضا « من خزي يومئذ » أي : من خزي وذل ذلك اليوم الهائل الشديد الذي نزل فيه العذاب بهم بالظالمين من قوم صالح ـ عليه السلام ـ فأبادهم فالتنوين في قوله « يومئذ » عوض عن المضاف إليه المحذوف .

وقوله ـ سبحانه ـ « إن ربك هو القوي العزيز » تسلية للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمؤمنين عما أصابهم من أذى .

---

(1) حاشية الجمل على الجلالين حـ ٤ ص ٤٠٨

أي : إن ربك ـ أيها الرسول الكريم ـ هو القوى الذى لا يعجزه شئ العزيز الذى لا يهون من يتولاه ويرعاه ، فلا تبتئس مما أصابك من قومك ، فربك قادر على أن يفعل بهم ، ما فعله بالظالمين السابقين من أمثالهم .

ثم صور القرآن الكريم حال هؤلاء الظالمين تصويراً يدعو إلى الاعتبار والاتعاظ فقال : « وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها . ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعداً لثمود » .

والصيحة : الصوت المرتفع الشديد . يقال : صاح فلان إذا رفع صوته بقوة . وأصل ذلك تشقيق الصوت ، من قولهم : انصاح الخشب والثوب ، إذا انشق فسمع له صوت .

« وجاثمين » : من الجثوم وهو للناس وللطير بمنزلة البروك للإبل . يقال : جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم . . . إذا وقع على صدره ، ولزمه مكانه فلم يبرحه .

ويغنوا فيها : أى يقيموا فيها . يقال : غنى فلان بالمكان يغنى إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد .

أى : وأخذ الذين ظلموا من قوم صالح — عليه السلام — العذاب عن طريق الصيحة الشديدة التى صيحت بهم بأمر الله — تعالى — «فأصبحوا» بسببها « فى دارهم جاثمين » أى : هلكى صرعى ، ساقطين على وجوههم ، بدون حركة . . .

« كأن لم يغنوا فيها » أى : كأن هؤلاء القوم الظالمين لم يقيموا فى ديارهم عمراً طويلا وهم فى رخاء من عيشهم » . . .

« ألا ان ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود » أى : ألا إن هؤلاء الظالمين من قبيلة ثمود ، كفروا نعمة ربهم وجحدوها ، ألا بعدا وسحقا وهلاكا لهؤلاء المجرمين من قبيلة ثمود .

وفى تكرار حرف التنبيه « ألا » وتكرار لفظ « ثمود » تأكيد لطردهم من رحمة الله ، وتسجيل لما ارتكبوه من منكرات .

وبذلك انطوت صفحة أولئك الظالمين من قوم صالح - عليه السلام - كما انطوت من قبلهم صحائف قوم نوح وهود - عليهما السلام - .

ومن أبرز العبر والعظات التى نأخذها من قصة صالح مع قومه كما وردت فى هذه السورة الكريمة : أن النفوس إذا انطمست ، والعقول إذا انتكست، تعجب مما لا عجب فيه ، وتستنكر ما هو حق وصدق ، وتسىء ظنها بالشخص الذى كان بالأمس القريب موضع رجائها وثقتها ، لأنه أتاها بما لم يألفوه ... حتى ولو كان ما أتاهم به فيه سعادتهم وهدايتهم ...

فصالح - عليه السلام - كان مرجوا فى قومه قبل أن يكون نبيا ، فلما صار نبيا وبلغهم ما أرسله الله به ، خاب أملهم فيه ، وساء ظنهم به ، وجاهروه بالعداوة والعصيان ... مع أنه إنما أتاهم بما يسعدهم ...

وصدق الله إذ يقول : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين »(١)

هذا ، وقد وردت أحاديث تصرح بأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد مر على ديار ثمود وهو فى طريقه إلى غزوة تبوك .

ومن هذه الأحاديث ما رواه الشيخان عن ابن عمر قال : لما مر رسول الله - صلى الله عليه وسلم بالحجر قال : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، لئلا يصيبكم ما أصابهم . ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادى »

---

(١) سورة الأعراف . الآية ١٤٦

ثم ساقت السورة الكريمة جانباً من قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة ، الذين جاءوه بالبشارة ، فقال - تعالى - .

« ولقد جاءتْ رسُلُنا إبراهيمَ بالبُشْرَى ، قالُوا سلاماً قالَ سلامٌ فما لبثَ أنْ جاء بعجْلٍ حَنيذٍ (٦٩) فلما رأَى أيديَهُم لا تَصِلُ إليه نَكِرَهُم وأوْجَسَ مِنهُم خيفَةً قالوا لا تخَفْ إنَّا أُرْسِلْنَا إلى قومِ لوطٍ (٧٠) وامرأتُه قائمةٌ فضحِكَتْ ، فبشَّرنَاها بإسحاقَ ومِنْ وَرَاءِ إسحاقَ يعقوبَ (٧١) قالَتْ يا وَيلَتَا أَأَلِدُ وإنا عجوزٌ وهذا بَعْلِي شيخاً إنَّ هذَا لشيءٌ عجيبٌ (٧٢) قالوا أتَعجبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رحمةُ اللهِ وبركاتُه عليكُم أهْلَ البيتِ إنَّه حميدٌ مجيدٌ (٧٣) فلمَّا ذهبَ عن إبراهيمَ الرَّوْعَ وجاءَتْهُ البُشْرَى يُجَادِلُنَا في قومِ لوطٍ (٧٤) إنَّ إبراهيمَ لحليمٌ أوَّاهٌ منيبٌ (٧٥) يا إبراهيمُ أعْرِضْ عن هذَا إنَّهُ قَد جاءَ أمرُ رَبِّكَ ، إنهم آتيهم عذابٌ غيرُ مردودٍ (٧٦) » .

هذه قصة إبراهيم - عليه السلام - مع الملائكة الذى جاءوا لبشارته بابنه إسحاق ، وبإخباره بإهلاك قوم لوط - عليه السلام -

وقد وردت هذه القصة فى سور أخرى منها سورة الحجر فى قوله - تعالى - : « ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قالوا إنا منكم وجلون . . . . »[1]

ومنها سورة الذاريات فى قوله - تعالى - « هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال سلام قوم منكرون . . . »[2]

(١) الآيات من ٥٢ إلى ٦٠ .
(٢) الآيات من ٢٤ إلى ٣٧ .

والمراد بالرسل فى قوله ـ سبحانه ـ «ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى» اعة من الملائكة الذين أرسلهم الله ـ تعالى ـ لتبشير إبراهيم بابنه إسحاق .

وقد اختلفت الروايات فى عددهم فعن ابن عباس أنهم ثلاثة وهم: جبريل ميكائيل وإسرافيل. وعن الضحاك أنهم كانوا تسعة ، وعن السدى أنهم كانوا حد عشر ملكا ...

والحق أنه لم يرد فى عددهم نقل صحيح يعتمد عليه ، فالمفوض معرفة عددهم لى الله — تعالى — .

والبشرى : اسم للتبشير والبشارة وهى الخبر السار ، فهى أخص من الخبر، سميت بذلك لأن آثارها تظهر على بشرة الوجه أى : جلده .

وجاءت هذه الجملة الكريمة بصيغة التأكيد للاهتمام بمضمونها ، وللرد على مشركى قريش وغيرهم ممن كان ينكر هذه القصة وأمثالها .

والباء فى قوله — سبحانه — « بالبشرى » المصاحبة والملابسة ، أى : جاءوه مصاحبين وملتبسين بالبشرى .

وقوله : «قالوا سلاما قال سلام » حكاية لتحيتهم له ولرده عليهم .

« وسلاما » منصوب بفعل محذوف . أى قالوا نسلم عليك سلاما .

« وسلام » مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى قال أمرى سلام .

وقرأ حمزة والكسائى : قال سلم وهو اسم للمسالمة .

ثم بين — سبحانه — مافعل إبراهيم مع هؤلاء الرسل من مظاهر الحفاوة والتكريم فقال : « فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » .

و « ما » فى قوله « فما لبث » نافية ، والفاء للتعقيب ، واللبث فى المكان معناه : عدم الانتقال عنه . والعجل : الصغير من البقر .

والحنيذ : السمين المشوى على الحجارة المحماة فى حفرة من الأرض . يقال: حنذ الشاة يحنذها حنذاً أى : شواها بهذه الطريقة .

أى : فما أبطأ وما تأخر إبراهيم - عليه السلام - عن إكرامهم ، بل بمجرد أن انتهى من رد التحية عليهم ، أسرع إلى أهله فجاءهم بعجل حنيذ ....

وهذا الفعل منه - عليه السلام - يدل على سعة جوده ، وعظيم سخائه ، فإن من آداب الضيافة ، تعجيل القرى للضيف ..

قال أبو حيان : والأقرب فى إعراب «فما لبث أن جاء ...» أن تكون «ما» نافية ، ولبث معناه تأخر وأبطأ ، «وأن جاء» فاعل لبث والتقدير : فما تأخر مجيئه ...

ويجوز أن يكون فاعل لبث ضمير إبراهيم ، وأن جاء على إسقاط حرف الجر ، أى فما تأخر فى أن جاء بعجل حنيذ ... »[1]

ثم بين - سبحانه - حال إبراهيم عندما رأى ضيوفه لا يأكلون من طعامه فقال : « فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة ... »

ومعنى « نكرهم » : نفر منهم ، وكره تصرفهم . تقول : فلان نكر حال فلان - كعلم - وأنكره نكراً ونكوراً ... إذا وجده على غير مايعهده فيه ، ويتوقعه منه .

و « أوجس » من الوجس وهو الصوت الخفى ، والمراد به هنا : الإحساس الخفى بالخوف والفزع الذى يقع فى النفس عند رؤية مايقلقها ويخيفها .

أى : فلما رأى إبراهيم - عليه السلام - ضيوفه لا تمتد أيديهم إلى الطعام الذى قدمه لهم ، نفر منهم ، وأحس فى نفسه من جهتهم خوفا ورعبا ؛ لأن امتناع الضيف عن الأكل من طعام مضيفه - بدون سبب مقنع - يشعر بأن هذا الضيف ينوى شرا به ... والتقاليد فى كثير من البلاد إلى الآن تؤيد ذلك .

ولذا قال الملائكة لإبراهيم عندما لاحظوا ما يساور نفسه من الخوف : « لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط »

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ ٥ ص ٢٤١ طبعة دار الفكر ....

أي : لا تخف يا إبراهيم فإنا لسنا ضيوفا من البشر ، وإنما نحن رسل من الله — تعالى — أرسلنا إلى قوم لوط لإهلاكهم .

وقد جاء في بعض الآيات أنه صارحهم بالخوف منهم ، ففي سورة الحجر قال — تعالى — : « ونبئهم عن ضيف إبراهيم . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ، قال إنا منكم وجلون . قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم ... » .

ثم حكى — سبحانه — ما حدث بعد ذلك فقال : « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » .

والمراد بامرأته — كما يقول القرطبي — « سارة بنت هاران بن ناحور ، ابن شاروع ، بن أرغو ، ابن فالغ ، وهي بنت عم إبراهيم[1]

وقيامها كان لأجل قضاء مصالحها ، أو لأجل خدمة الضيوف .... أو لغير ذلك من الأمور التي تحتاجها المرأة في بيتها .

والمراد بالضحك هنا حقيقته . أي : فضحكت سرورا وابتهاجا بسبب زوال الخوف عن إبراهيم ، أو بسبب علمها بأن الضيوف قد أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط ، أو بهما معا ...

قال الشوكاني : والضحك هنا هو الضحك المعروف الذي يكون للتعجب والسرور كما قاله الجمهور .

وقال مجاهد وعكرمة : إنه الحيض ، ومنه قول الشاعر :

وإني لآتي العرس عند طهورها وأهجرها يوما إذا تك ضاحكا

وقد أنكر بعض اللغويين أن يكون في كلام العرب ضحكت بمعنى حاضت[2] .

أي : وفي أعقاب قول الملائكة لإبراهيم لا تخف ... كانت امرأته قائمة لقضاء بعض حاجاتها ، فلما سمعت ذلك ، ضحكت ، سرورا وفرحا لزوال خوفه

---

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ٧٠

(٢) تفسير فتح القدير للشوكاني ج ٢ ص ٥١٠

« فبشرناها » عقب ذلك بمولودها « إسحاق » كما بشرناها بأن إسحاق سيكون من نسله « يعقوب » . فهي بشارة مضاعفة . إذ أنها تحمل في طياتها أنها ستعيش حتى ترى ابن ابنها ...

ولا شك أن المرأة عندما تكون قد بلغت سن اليأس . ولم يكن لها ولد ، ثم تأتيها مثل هذه البشارة يهتز كيانها ، ويزداد عجبها ، ولذا قالت على سبيل الدهشة والاستغراب : « ياويلتا أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب » .

وكلمة « يا ويلتا » تستعمل في التحسر والتألم والتفجع عند نزول مكروه . والمراد بها هنا : التعجب لا الدعاء على نفسها بالويل والهلاك ، وهي كلمة كثيرة الدوران على أفواه النساء إذا طرأ عليهن مايدهشن له ، ويتعجبن منه .

أي : قالت بدهشة وعجب عندما سمعت بشارة الملائكة لها بالولد وبولد الولد : يا للعجب أألد وأنا امرأة عجوز ، قد بلغت سن اليأس من الحمل منذ زمن طويل ، « وهذا بعلي » أي : زوجي إبراهيم « شيخا » كبيرا متقدما في السن .

قال الجمل : وهاتان الجملتان ـ وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا ـ في محل النصب على الحال من الضمير المستتر في « أألد » ، وشيخا حال من بعلي ، والعامل فيه اسم الإشارة لما فيه من معنى الفعل »[1] .

وقولها ـ كما حكى القرآن عنها ـ « إن هذا لشيء عجيب » أي : إن هذا الذي بشرتموني به من حصول الولد لي في تلك السن المتقدمة « لشيء عجيب » في مجرى العادة عند النساء وقد رد عليها الملائكة بقولهم : « قالوا أتعجبين من أمر الله » ؟ ! !

أي : أتستبعدين على قدرة الله ـ تعالى ـ أن يرزقك الولد وأنت وزوجك في هذه السن المتقدمة ؟ لا إنه لاينبغي لك أن تستبعدي ذلك ، لأن قدرة الله

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤١١

لا يعجزها شيء . فالاستفهام هنا المراد به إنكار تعجبها واستبعادها البشارة ، وإزالة أثر ذلك من نفسها إزالة تامة .

وقوله : « رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت » حكاية لما قاله الملائكة لها ، زيادة فى سرورها وفى إدخال الطمأنينة على قلبها .

أى رحمة الله الواسعة ، وبركاته وخيراته النامية عليكم أهل البيت الكريم وهو بيت إبراهيم - عليه السلام - .

قال صاحب الكشاف : وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ، لأنها كانت فى بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للعادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزدهيها ما يزدهى سائر النساء الناشئات فى غير بيت النبوة وأن تسبح الله وتمجده ، مكان التعجب .

وإلى ذلك أشارت الملائكة فى قولهم «رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت» .

أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة ، فليس بمكان عجب . والكلام مستأنف علل به إنكار التعجب . كأنه قيل : إياك والتعجب ، فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم »[1] .

وقوله - سبحانه - « إنه حميد مجيد » تذييل بديع قصد به وجوب مداومتها على حمد الله وتمجيده على أن وهبها الولد بعد أن بلغت سن اليأس من الحمل .

أى إنه - سبحانه - « حميد » أى : مستحق للحمد لكثرة نعمه على عباده « مجيد » أى كريم واسع الإحسان ، فليس بعيدا منه أن يعطى الولد للآباء بعد الكبر .

قال صاحب المنار ما ملخصه . وأصل المجد فى اللغة أن تقع الإبل فى أرض

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٢ ص ٢٨١

واسعة المرعى ، كثيرة الخصب ، يقال . مجدت الإبل تمجد من باب نصر - مجدا ومجادة ، وأمجدها الراعى .

والمجد فى البيوت والأنساب مايعده الرجل من سعة كرم آبائه وكثرة نوالهم. ووصف الله كتابه بالمجيد ، كما وصف نفسه بذلك ، لسعة هداية كتابه ، وسعة كرمه وفضله على عباده .... »[1] .

ثم حكى - سبحانه - ما كان من إبراهيم بعد أن سكن خوفه ، واطمأن إلى ضيوفه فقال : « فلما ذهب عن إبراهيم الروع » أى : الخوف والفزع ، بسبب اطمئنانه إلى ضيوفه ، وعلمه أنهم ليسوا من البشر .

« وجاءته البشرى » منهم بالولد ، واتصال النسل ، فازداد سرورا بهم .

بعد كل ذلك ، أخذ إبراهيم « يجادلنا فى قوم لوط » أى : يجادل رسلنا ويحاورهم فى شأن قوم لوط ، وفى كيفية عقابهم ، بعد أن أخبروه بأنهم ذاهبون لإهلاكهم .

وأضاف - سبحانه - المجادلة إلى نفسه مع أنها كانت مع الملائكة ، لأن نزولهم لإهلاك قوم لوط إنما كان بأمره - تعالى - ، فمجادلة إبراهيم لهم هى مجادلة فى تنفيذ أمره - تعالى - .

وقال - سبحانه - « يجادلنا » مع أنها كانت فى الماضى ، لتصوير هذه الحالة فى الذهن تصويرا حاضرا ، حتى تزداد منه العبرة والعظة .

وهذه المجادلة التى كانت بين إبراهيم وبين الملائكة الذين أرسلوا لإهلاك قوم لوط ، قد حكاها - سبحانه - فى سورة العنكبوت فى قوله : « ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية » - أى القرية التى يسكنها قوم لوط - إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطا ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين » الآيتان ٣١ - ٣٢ .

---

(١) تفسير المنار ج ١٢ ص ١٣٠

وهذا التفسيرة للمجادلة التى دارت بين إبراهيم والملائكة فى عقاب قوم لوط هو الصحيح لأن خير تفسير للقرآن هو ما كان بالقرآن .

وما ورد من أقوال تخالف ذلك فلا يلتفت إليها ، لعدم استنادها إلى النقل الصحيح .

وقوله - سبحانه - « إن إبراهيم لحليم أواه منيب » بيان للدواعى التى حملت إبراهيم - عليه السلام - على مجادلة الملائكة فى شأن اهلاك قوم لوط .

والحليم : هو الصبور على الأذى ، الصفوح عن الجناية ، المقابل لها بالإحسان .

والأواه : هو الذى يكثر التأوه من خشية الله .

قال الآلوسى : وأصل التأوه قوله آه ونحوه مما يقوله المتوجع الحزين . وهو عند جماعة كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وغيرهما عن عبد الله بن شداد قال رجل : يارسول الله ما الأواه ؟ قال : الخاشع المتضرع الكثير الدعاء »[1] .

والمنيب : السريع الرجوع الى الله - تعالى - بالتوبة والاستغفار .

أى أن إبراهيم لصبور على الأذى ، صفوح عن الجناية ، كثير التضرع إلى الله ، سريع الرجوع إلى فى كل ما يحبه ويرضاه .

ولكن حلم ابراهيم وإنابته ... لم يرد قضاء الله العادل فى شأن قوم لوط ولذا قال الملائكة له - كما حكى القرآن عنهم - : « يا إبراهيم أعرض عن هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وانهم آتيهم عذاب غير مردود »

أى : قال الملائكة لإبراهيم : « يا إبراهيم أعرض عن هذا » الجدال فى أمر قوم لوط ، وفى طلب إمهال عقوبتهم « إنه قد جاء أمر ربك » بإهلاكهم « إنهم » بسبب إصرارهم على ارتكاب الفواحش « آتيهم » من ربهم « عذاب »

(١) تفسير الآلوسى ج ١١ ص ٣٥

شديد «غير مردود» عنهم لا بسبب الجدال ولا بأى سبب سواه، فإن قضاء الله لا يرد عن القوم المجرمين . هـذا ، وقد ذكر الشيخ القاسمى بعض الفوائد والأحكام التى أخذها العلماء من هذه الآيات فقال : قال بعض المفسرين : لهذه الآيات ثمرات وفوائد :

منها : أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة ، وأن هلاك العاصى نعمة - أيضا - لأن البشرى قد فسرت بولادة إسحاق لقوله «فبشرناها بإسحاق وفسرت بهلاك قوم لوط ، لقوله : قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط »

ومنها : إستحباب نزول المبشر - بالكسر - على المبشر - بالفتح - لأن الملائكة أرسلهم الله - تعالى - لذلك .

ومنها : أنه يستحب للمبشر أن يتلقى البشارة بالشكر لله - تعالى - على ما بشر به . فقد حكى عن الأصم أنه قال : جاؤوه فى أرض يعمل فيها ، فلما فرغ غرز مسحاته ، وصلى ركعتين .

ومنها : أن السلام مشروع ، وأنه ينبغى أن يكون الرد أفضل لقول إبراهيم « سلام » بالرفع وهو أدل على الثبات والدوام .

ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة اليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها .

ومنها : استحباب خدمة الضيف ولو للمرأة ، لقول مجاهد : وامرأته قائمة ؛ أى فى خدمة أضياف ابراهيم . . . . . وخدمة الضيفان من مكارم الأخلاق :

ومنها : جواز مراجعة الأجنب فى القول ، وأن صوتها ليس بعورة .

ومنها . أن امرأة الرجل من أهل بيته ، فيكون أزواجه - صلى الله عليه وسلم - من أهل بيته [1] :

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٤٦٧

ومنها : — كما يقول الإمام ابن كثير — استدل على أن الذبيح هو اسماعيل لا إسحاق ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ، لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب ، فكيف يؤمر ابراهيم بذبحه وهو طفل صغير ، ولم يولد له بعد يعقوب الموعود بوجوده ، ووعد الله حق لاخلف فيه ، فيمتنع أن يؤمر بذبح اسحاق والحالة هذه ، فتعين أن يكون الذبيح اسماعيل ، وهذا من أحسن الاستدلال وأصحه : . » (1)

« ولمَّا جاءتْ رسلُنَا لوطاً سِيءَ بهم وضاقَ بهم ذرعاً ، وقالَ هذَا يومٌ عصيبٌ (٧٧) وجاءهُ قومُه يُهرَعُونَ إليه، ومن قبلُ كانُوا يعملونَ السيئاتِ ، قالَ يا قومِ هؤلاءِ بناتِي هنّ أطهــرُ لكُم فاتقُوا اللهَ ولا تخزُونِ فى ضَيْفِى أليسَ منكُم رجلٌ رشيدٌ (٧٨) قالوا لقد علمتَ مالَنا فى بناتِكَ مِنْ حقٍّ، وإنَّكَ لتعلمُ ما نريدُ (٧٩) قالَ لو أنَّ لِى بكُمْ قوةً أوْ آوِى إلى ركْنٍ شديدٍ (٨٠) قالوا يا لوطُ إنَّا رسلُ ربِّكَ لَنْ يَصِلُوا إليكَ فأسرِ بأهلِكَ بِقطْعٍ مِن اللَّيلِ ولا يَلتفِتْ منكمْ أحدٌ إلاَّ امرأتَكَ ، إنَّه مُصيبُها ما أصابَهم ، إن موعِدَهُم الصبحُ ، أليسَ الصبحُ بقريبٍ (٨١) فلما جاءَ أمرُنَا جعلنا عالِيهاَ سافِلهاَ وأمْطرنَا عليها حجارةً مِنْ سِجّيلٍ منضـودٍ (٨٢) مُسَوَّمةً عنــدَ ربِّكَ وما هِيَ من الظالمينَ ببَعيدٍ (٨٣) » .

ثم انتقلت السورة الكريمة الى الحديث عما دار بين لوط وبين الملائكة وبينه وبين قومه من حوار وجدال فقال — تعالى — :

---

(1) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٦٦

- تلك هى قصة لوط مع الرسل الذين جاءوا لإهلاك قومه المجرمين، كما حكتها سورة هود.

- وقد وردت هذه القصة فى سور أخرى وبأساليب متنوعة، ومنها سورة الأعراف، والحجر، والشعراء، والنمل، والعنكبوت: والصافات. والذاريات. والقمر ....

قال الإمام ابن كثير: ولوط هو ابن هاران بن آزر، فهو ابن أخى إبراهيم، وكان قد آمن مع عمه ابراهيم وهاجر معه إلى أرض الشام، فبعثه الله إلى أهل بلدة سدوم وما حولها يدعوهم إلى وحدانية الله - تعالى -، ويأمرهم بالمعروف. وينهاهم عما كانوا يرتكبون من المآثم والمحارم والفواحش التى اخترعوها دون أن يسبقهم بها أحد من بنى آدم ولا من غيرهم، وهو إتيان الذكور دون الإناث، وهذا شىء لم يكن أحد من بنى آدم يعهده ولا يألفه ولا يخطر بباله، حتى صنع ذلك أهل «سدوم - وهم قرية بوادى الأردن عليهم لعائن الله» (١)

- وقد بدأ - سبحانه - القصة هنا بتصوير ما اعترى لوطا - عليه السلام - من ضيق وغم عندما جاءته الرسل فقال: «ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم ....»

- أى: وحين جاء الملائكة إلى لوط - عليه السلام - بعد مفارقتهم لإبراهيم، ساءه وأحزنه مجيئهم، لأنه كان لا يعرفهم، ويعرف أن قومه قوم سوء، فخشى أن يعتدى قومه عليهم، بعادتهم الشنيعة، وهو عاجز عن الدفاع عنهم ...

قال ابن كثير ما ملخصه: «يخبر الله - تعالى - عن قدوم رسله من الملائكة إلى لوط - عليه السلام - بعد مفارقتهم لإبراهيم ... فأتوا لوطا

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٣٠

ـ عليه السلام ـ وهو على ما قيل فى أرض له.وقيل فى منزله ، ووردوا عليه وهم فى أجمل صورة تكون ، على هيئة شبان حسان الوجوه ، ابتلاء من الله ، وله الحكمة والحجة البالغة ، فساءه شأنهم .... » (١)

ـ وقوله : « وضاق بهم ذرعا » تصوير بديع لنفاذ حيلته ، واغتمام نفسه وعجزه عن وجود حيلة للخروج من المكروه الذى حل بهم .

قال القرطبى : والذرع مصدر ذرع . وأصله : أن يذرع البعير بيديه فى سيره ذرعا على قدر سعة خطوه فإذا حمل عليه أكثر من طاقته ضاق عن ذلك وضعف ومد عنقه . فضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع . وقيل هو من ذرعه القيء أى غلبة .

أى : ضاق عن حبسه المكروه فى نفسه .

وانما ضاق ذرعه بهم لما رأى من جمالهم ، وما يعلمه من فسوق قومه .... » (٢)

ـ و « ذرعا » تمييز محول عن الفاعل . أى : ضاق بأمرهم ذرعه .

« وقال هذا يوم عصيب » : أى وقال لوط ـ عليه السلام ـ فى ضجر وألم : هذا اليوم الذى جاءنى فيه هؤلاء الضيوف، يوم « عصيب » أى : شديد هوله وكربه .

وأصل العصب : الشد والضغط ، فكأن هذا اليوم لشدة وقعه على نفسه قد عصب به الشر والبلاء ، أى : شد به .

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير : ومن بديع ترتيب هذه الجمل أنها جاءت على ترتيب حصولها فى الوجود ، فإن أول مايسبق الى نفس الكاره للأمر أن يساء به ويتطلب المخلص منه ، فإذا علم أنه لامخلص له منه ضاق به ذرعا . ثم يصدر تعبيرا عن المعانى يريح به نفسه » (٣)

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٢٦٦ (٢) تفسير القرطبى جـ ٩ صـ ٧٤

(٣) تفسير التحرير والتنوير للشيخ ابن عاشور جـ ١٢ صـ ١٢٥

ـ ثم بين ـ سبحانه ـ ما كان من قوم لوط ـ عليه السلام ـ عندما علموا بوجود هؤلاء الضيوف عنده فقال : « وجاءه قومه يهرعون اليه . ومن قبل كانوا يعملون السيئات . . . . »

ـ ويهرعون ـ بضم الياء وفتح الراء على صيغة المبنى للمفعول ـ أى : يدفع بعضهم بعضا بشدة ، كأن سائقا يسوقهم الى المكان الذى فيه لوط وضيوفه .

يقال : هرع الرجل وأهرع ـ بالبناء للمفعول فيهما ـ إذا أعجل وأسرع لدافع يدفعه إلى ذلك .

قال الآلوسى : والعامة على قراءته مبنيا المفعول ، وقرأ جماعة يهرعون ـ بفتح الياء مع البناء للفاعل ـ من هرع ـ بفتح الهاء والراء ـ وأصله من الهرع وهو الدم الشديد السيلان ، كأن بعضه يدفع بعضا [1] .

أى : وبعد أن علم قوم لوط بوجود هؤلاء الضيوف عند نبيهم ، جاءوا إليه مسرعين يسوق بعضهم بعضا إلى بيته من شدة الفرح ، ومن قبل هذا المجىء ، كان هؤلاء القوم الفجرة، يرتكبون السيئات الكثيرة، التى من أقبحها إتيانهم الرجال شهوة من دون النساء .

وقد طوى القرآن الكريم ذكر الفرض الذى جاءوا من أجله، وأشار إليه بقوله : (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) للإشعار بأن تلك الفاحشة صارت عادة من العادات المتأصلة فى نفوسهم الشاذة، فلا يسعون إلا من أجل قضائها.

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما بادرهم به نبيهم بعد أن رأى هياجهم وتدافعهم نحو داره فقال : (قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم) . . .

والمراد بناته هنا : زوجاتهم ونساؤهم اللائى يصلحن للزواج ، وأضافهن إلى نفسه ؛ لأن كل نبى أب لأمته من حيث الشفقة وحسن التربية والتوجيه .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ٩٥ .

قال ابن كثير : قوله - تعالى - «قال ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم ....» يرشدهم إلى نسائهم، فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد ، فأرشدهم إلى ماهو أنفع لهم، كما قال لهم فى آية أخرى : «أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ماخلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون» ....

قال مجاهد : لم يكن بناته ، ولكن كن من أمته ، وكل نبي أبو أمته ...

وقال سعيد بن جبير : يعنى نساؤهم ، هن بناته وهو أب لهم ...»[1].

ومنهم من يرى أن المراد ببناته هنا : بناته من صلبه ، وأنه عرض عليهم الزواج بهن ....

ويضعف هذا الرأى أن لوطا - عليه السلام - كان له بنتان أو ثلاثة - كما جاء فى بعض الروايات - ، وعدد المتدافعين من قومه إلى بيته كان كثيرا ، فكيف تكفيهم بنتان أو ثلاثة للزواج . - ؟

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، وقد رجحه الإمام الرازى بأن قال ماملخصه : «وهذا القول عندى هو المختار ، ويدل عليه وجوه: منها : أنه قال «هؤلاء بناتى هن أطهر لكم» ، وبناته اللاتى من صلبه لاتكفى للجمع العظيم ، أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل ...

ومنها : أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان وهما: زنتا وزعورا ، وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز ، لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة ...»[2] .

والمعنى : أن لوطا - عليه السلام - عندما رأى تدافعهم نحو بيته لارتكاب الفاحشة التى ماسبقهم بها من أحد من العالمين ، قال لهم : برجاء ورفق «ياقوم هؤلاء نساؤكم اللائى بمنزلة بناتى ارجعوا إليهن فاقضوا شهوتكم مع هن ، فهن أطهر لكم نفسيا وحسيا من التلوث برجس اللواط ، وأفعل التفضيل هنا وهو «أطهر» ليس على بابه ، بل هو للمبالغة فى الطهر .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٦٨ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١٨ ص ٣٢ .

قال القرطبي : وليس ألف أطهر للتفضيل ، حتى يتوهم أن فى نكاح الرجال طهارة ، بل هو كقولك الله أكبر - أى كبير - ..... ولم يكابر الله - تعالى - أحد حتى يكون الله - تعالى - أكبر منه ... »[1] .

ثم أضاف إلى هذا الإرشاد لهم إرشادا آخر فقال : « فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى .... » .

قال الجمل : ولفظ الضيف فى الأصل مصدر ، ثم أطلق على الطارق ليلا إلى المضيف ، ولذا يقع على المفرد والمذكر وضديهما بلفظ واحد ، وقد يثنى فيقال : ضيفان ، ويجمع فيقال : أضياف وضيوف ... »[2] .

وتخزون : من الخزى وهو الإهانة والمذلة . يقال : خزى الرجل يخزى خزياً ... إذا وقع فى بلية وذل بذلك .

أى : بعد أن أرشدهم إلى نسائهم ، أمرهم بتقوى الله ومراقبته ، فقال لهم : فاتقوا الله . ولا تجعلونى مخزيا مفضوحا أمام ضيوفى بسبب اعتدائكم عليهم ، فإن الاعتداء على الضيف كأنه اعتداء على المضيف .

ويبدو أن لوطا - عليه السلام - قد قال هذه الجملة ليلمس بها نخوتهم إن كان قد بقى فيهم بقية من نخوة ، ولكنه لما رأى إصرارهم على فجورهم وبخهم بقوله :

« أليس منكم رجل رشيد » يهدى إلى الرشد والفضيلة . وينهى عن الباطل والرذيلة . فيقف إلى جانبى . ويصرفكم عن ضيوفى ؟

ولكن هذا النصح الحكيم من لوط لهم لم يحرك قلوبهم الميتة الآسنة . ولا فطرتهم الشاذة المنكوسة . بل ردوا عليه بقولهم :

« قالوا لقد علمت مالنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد » .

أى : قال قوم لوط له بسفاهة ووقاحة : لقد علمت يالوط علما لاشك

(١) تفسير القرطبى ج ٩ ص ٨٦ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤١٣ .

ـه ، أننا لا رغبة لنا فى النساء ، لا عن طريق الزواج ولا عن أى طريق
خر ، فالمراد بالحق هنا : الرغبة والشهوة .

قال الشوكانى : قوله « مالنا فى بناتك من حق » أى : مالنا فيهن من شهوة
ولا حاجة ، لأن من احتاج إلى شىء فكأنه حصل له فيه نوع حق ، ومعنى
مانسبوه إليه من العلم أنه قد علم منهم المكالبة على إتيان الذكور وشدة الشهوة
إليهم ، فهم من هذه الحيثية كأنهم لاحاجة لهم إلى النساء . ويمكن أن يريدوا :
أنه لا حق لنا فى نكاحهن ..... »[1] .

وقولهم : « وإنك لتعلم مانريد » إشارة خبيثة منهم إلى العمل الخبيث
الذى ألفوه ، وهو إتيان الذكور دون النساء أى : وإنك لتعلم علما يقينيا
الشىء الذى نريده فلماذا ترجعنا ؟!

وقولهم هذا الذى حكته الآية الكريمة عنهم ، يدل دلالة واضحة على أنهم
قد بلغوا النهاية فى الخبث والوقاحة وتبلد الشعور ...

لذا رد عليهم لوط - عليه السلام - رد اليائس من ارعوائهم عن غيهم ،
المتمنى لوجود قوة إلى جانبه تردعهم وتكف فجورهم .... فقال : « أن لى
بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد » .

والقوة : مايتقوى به الإنسان على غيره .

وآوى : أى ألجأ وأنضوى تقول : أديت إلى فلان فأنا آوى إليه أو
أى : انضممت إليه .

والركن فى الأصل : القطعة من البيت أو الجبل ، والمراد به هنا الشخص
القوى الذى يلجأ إليه غيره لينتصر به ...

ولو شرطية وجوابها محذوف ، والتقدير : قال لوط - عليه السلام - بعد

---

(١) تفسير فتح القدير جـ ٢ ص ٥١٤ .

أن رأى من قومه الاستمرار فى غيهم ، ولم يقدر على دفعهم – على سبيل التفجع والتحسر : لو أن معى قوة أدفعكم بها لبطشت بكم .

ويجوز أن تكون لو للتمنى فلا تحتاج إلى جواب أى : ليت معى قوة استطيع بمناصرتها لى دفع شركم .

وقوله « أو آوى إلى ركن شديد » معطوف على ما قبـــله ، أو ليتنى أستطيع أن أجد شخصا قويا من ذوى المنعة والسلطان أحتمى به منكم ومن تهديدكم لى ...

قالوا : وإنما قال لوط – عليه السلام – ذلك ، لأنه كان غريبا عنهم ، ولم يكن له نسب أو عشيرة فيهم .

وهنا – وبعد أن بلغ الضيق بلوط مابلغ – كشف له الملائكة عن حقيقتهم ، وبشروه بما يدخل الطمأنينة على قلبه فقالوا :

« يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك » أى : إنا رسل ربك أرسلنا إليك لنخبرك بهلاكهم ، فاطمئن فإنهم لن يصلوا إليك بسوء فى نفسك أو فينا .

روى أن الملائكة لما رأوا مالقيه لوط – عليه السلام – من الهم والكرب بسببهم قالوا له : يالوط إن ركنك لشديد ... ثم ضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم ، فارتدوا على أدبارهم يقولون النجاء ، وإليه الإشارة بقوله – تعالى – فى سورة القمر : « ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ، فذوقوا عذابى ونذر » .

وقوله : « فاسر بأهلك بقطع من الليل » أى : فاخرج من هذه القرية مصحوبا بالمؤمنين من أهلك فى جزء من الليـــل يكفى لا بتعادك عن هؤلاء المجرمين .

قال القرطبى : قرىء «فاسر وفأسر بوصل الهمزة وقطعها لغتان فصيحتان ،

قال ـ تعالى ـ « والليل إذا يسر » وقال « سبحان الذى أسرى بعبده ..... » وقيل « فأسر » بالقطع تقال لمن سار من أول الليل .. وسرى لمن سار فى آخره ، ولا يقال فى النهار إلا سار ... »[١] .

وقوله : « ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم ... » معطوف على ماقبله وهو قوله : « فأسر بأهلك ..... » .

أى : فأسر بأهلك فى جزء من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلى ماوراءه ، اتقاء لرؤية العذاب ، « إلا امرأتك » يالوط فاتركها ولا تأخذها معك لأنها كافرة خائنة ، ولأنها سيصيبها العـــذاب الذى سينزل بهؤلاء المجرمين فيهلكها معهم .

قال الإمام الرازى ماملخصه: قوله «إلا امرأتك» قرأ ابن كثير وأبو عمرو « إلا امرأتك » بالرفع ، وقرأ الباقون بالنصب .

قال الواحدى : من نصب فقد جعلها مستثناة من الأهل ، على معنى : فأسر بأهلك إلا امرأتك أى فلا تأخذها معك ...

وأما الذين رفعوا فالتقدير : ولا يلتفت منكم أحد لكن امرأتك تلتفت فيصيبها ما أصابهم .

وأما الذين رفعوا فالتقدير : ولا يلتفت منكم أحد لكن امرأتك تلتفت فيصيبها ما أصابهم .

روى عن قتادة أنه قال : إنها كانت مع لوط حين خرج من القرية ، فلما سمعت العذاب التفتت وقالت واقوماه فأصابها حجر فأهلكها »[٢] .

وقوله ـــ سبحانه ـــ « إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب » بشارة أخرى للوط ـ عليه السلام ـ الذى تمنى النصرة على قومه .

---

(١) تفسير القرطبي جـ٩ صـ ٧٩ .

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ١٨ صـ ٣٦ .

أى : إن موعد هلاك هؤلاء المجرمين يبتدىء من طلوع الفجر وينتهى مع طلوع الشمس ، أليس الصبح بقريب من هذا الوقت الذى نحدثك فيه ؟

قال - تعالى - فى سورة الحجر : « فأخذتهم الصيحة مشرقين » أى : وهم داخلون فى وقت الشروق . فكان ابتداء العذاب عند طلوع الصبح وانتهاؤه وقت الشروق .

والجملة الكريمة « إن موعدهم الصبح . . . » كالتعليل للأمر بالإسراء بأهله بسرعة ، أو جواب عما جاش بصدره من استعجاله العذاب لهؤلاء المجرمين !

والاستفهام فى قوله - سبحانه - « أليس الصبح بقريب » للتقرير أى: بلى إنه لقريب .

قال الآلوسى : روى أنه - عليه السلام - سأل الملائكة عن موعد هلاك قومه فقالوا له : موعدهم الصبح . فقال : أريد أسرع من ذلك. فقالوا له:أليس الصبح بقريب . ولعله إنما جعل ميقات هلاكهم الصبح لأنه وقت الدعة والراحة فيكون حلول العذاب حينئذ أفظع ، ولأنه أنسب بكون ذلك عبرة للناظرين[١] .

ثم حكى - سبحانه - فى نهاية القصة ما حل بهؤلاء المجرمين من عذاب فقال : « فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد » .

أى : « فلما جاء أمرنا » بإهلاك هؤلاء القوم المفسدين « جعلنا عاليها سافلها » أى : جعلنا أعلى بيوتهم أسفلها، بأن قلبناها عليهم، وهى عقوبة مناسبة لجريمتهم حيث قلبوا فطرتهم ، فأتوا الذكران من العالمين ، وتركوا ما خلق لهم ربهم من أزواجهم . . .

وقوله « وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود » زيادة فى عقوبتهم وامتهانهم

(١) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٠١ .

أى : جعلنا أعلى قراهم أسفلها ، وأمطرنا عليهم حجارة « من سجيل » أى : من حجر وطين مختلط ، قد تحجر وتصلب « منضود » أى : متتابع فى النزول بدون انقطاع موضوع بعض على بعض ، من النضد وهو موضع الأشياء بعضها إلى بعض .

« مسومة عند ربك » أى : معلمة بعلامات من عند ربك لا يعلمها إلا هو ، ومعدة إعدادا خاصا لإهلاك هؤلاء القوم .

« وما هى » أى تلك القرى المهلكة « من الظالمين » وهم مشركو مكة « ببعيد » أى : ببعيدة عنهم ، بل هى قريبة منهم ، ويمرون عليها فى أسفارهم إلى الشام .
قال تعالى — « وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون »(١)
أى : وإنكم يا أهل مكة لتمرون على هؤلاء القوم المهلكين من قوم لوط فى وقت الصباح أى النهار ، وتمرون عليهم بالليل أفلا تعقلون ذلك فتعتبروا وتتعظوا ؟؟

ويجوز أن يكون الضمير فى قوله « وما هى » يعود إلى الحجارة التى أهلك الله بها هؤلاء القوم .

أى : وما هى تلك الحجارة الموصوفة بما ذكر من الظالمين ببعيد ، بل هى حاضرة مهيئة بقدرة الله — تعالى — لإهلاك الظالمين بها .

والمراد بالظالمين ما يشمل قوم لوط ، ويشمل كل من عصى الله وتجاوز حدوده ، لم يتبع ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - .

وهكذا كانت نهاية قوم لوط ، فقد انطوت صفحتهم كما انطوت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح — عليهم الصلاة والسلام —

هذا ومن العبر والأحكام التى نأخذها من هذه الآيات الكريمة ، أنه لا بأس على المسلم من أن يستعين بغيره لنصرة الحق الذى يدعو إليه ، ولخذلان الباطل الذى ينهى عنه .

---

(١) سورة الصافات الآيتان ١٣٧ — ١٣٨ .

فلوط ـ عليه السلام ـ عندما رأى من قومه الإصرار على غوايتهم ومفاسدهم تمنى لو كانت معه قوة تزجرهم وتردعهم وتمنعهم عن فسادهم .

وقد علق الإمام ابن حزم على ما جاء فى الحديث الشريف بشأن لوط — عليه السلام — فقال ما ملخصه:

« ظن بعض الفرق أن ما جاء فى الحديث الصحيح من قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « رحم الله لوطا ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد » إنما هو من باب الإنكار على لوط ـ عليه السلام ـ فى قوله « لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ـ

والحق أنه لا تخالف بين القولين ، بل كلاهما حق ، لأن لوطا ـ عليه السلام إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش . من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين ، وما جهل قط لوط ـ عليه السلام ـ أنه يأوى من ربه ـ تعالى ـ إلى أمنع قوة ، وأشد ركن .

ولا جناح على لوط ـ عليه السلام ـ فى طلب قوة من الناس ـ فقد قال الله ـ تعالى ـ « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

وقد طلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأنصار نصرته حتى يبلغ كلام ربه ، فكيف ينكر على لوط أمرا هو فعله ؟ ! !

تالله ما أنكر ذلك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، وإنما أخبر أن لوطا كان يأوى إلى ركن شديد ، يعنى من نصر الله له بالملائكة ، ولم يكن لوط علم بأنهم ملائكة . . . » [١]

ثم انتقلت السورة الكريمة بعد ذلك فقصت علينا ما كان بين شعيب — عليه السلام — وقومه وكيف أنه دعاهم إلى عبادة الله ـ تعالى ـ وحده بأسلوب

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٩ ص ٣٤٧٢

بليغ حكيم ، ولـكنهم لم يستجيبوا له ، فكانت عاقبتهم الهلاك كالذين من قبلهم قال - تعالى - :

« وإلى مَدْيَنَ أخاهُم شُعيباً ، قال يا قوم ِ اعبدُوا اللهَ ما لـكُم من إلهٍ غيرُه ، ولا تَنْقُصُوا المـكيالَ والميزانَ إنى أراكُم بخيرٍ وإنى أخاف عليكُم عـذابَ يومٍ محيطٍ (٨٤) ويا قومِ أوْفُوا المـكيالَ والميزا بالقِسْطِ ، ولا تبخسُوا الناسَ أشياءهم ولا تعثَوْا فى الأرضِ مفسدينَ (٨٥ بقيتُ اللهِ خيرٌ لـكم إنْ كنتُم مؤمنينَ وما أنَا عليـكُم بحفيظٍ (٨٦ قالوا يا شعيبُ أصلاتُكَ تأمُركَ أن نتركَ ما يعبدُ آباؤُنَا ، أو أن نفعَ فى أموالِنَا ما نشاء إنك لأنتَ الحليمُ الرشيدُ (٨٧) قال يا قومِ أرأيْ إنْ كنتُ على بيِّنَةٍ من ربِّى ، ورزَقنى منه رزْقاً حَسناً ، وما أُريدُ أ أخالِفـكُم إلى ما أنهاكُم عنه ، إن أُريدُ إلا الإصلاحَ ما استطعتُ وما توفيقى إلا باللهِ عليه توكلتُ وإليه أُنيبُ (٨٨) ويا قومِ لايجرمنكُ شِقاقِى أنْ يُصِيبَـكُم مثلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ أو قومَ هودٍ أو قو صالحٍ وما قومَ لوطٍ منـكم ببعيدٍ (٨٩) واستغفروا ربكُم ثم توبُوا إل إنَّ ربِّى رحيمٌ ودودٌ (٩٠) قالوا يا شعيبُ ما نفقَهُ كثيراً مما تقولُ وإ لنراكَ فينَا ضعيفاً ولولا رهطُكَ لرجمنـاكَ وما أنتَ علينَا بعزيزٍ (٩١ قالَ يا قومِ أرَهطِى أعزُّ عليـكُم من اللهِ واتخذتموهُ وراءكُم ظهريًا إنّ ربى بما تعملونَ محيطٌ (٩٢) ويا قومِ اعملُوا على مكانتِكُم إنى عام سوفَ تعلمونَ ، من يأتيه عذابٌ يُخزِيه ومن هو كاذبٌ وارتقِبُو إنى معكُم رقيبٌ (٩٣) ولمَّـا جاء أمرُنَا نجَّيْنَا شعيباً والذينَ آمنُوا م

برحمةٍ منا، وأخذَتِ الذينَ ظلمُوا الصيحةَ فأصبحُوا فى ديارِهم جاثمينَ (٩٤) كأن لم يغنَوْا فيها ، ألا بُعداً لمدينَ كما بَعِدَتْ ثمودُ (٩٥) » .

تلك هى قصة شعيب ـ عليه السلام ـ كما حكتها هذه السورة الكريمة ، وقد وردت هذه القصة فى سورة أخرى منها : سورتى الأعراف والشعراء . . .

ومدين إسم للقبيلة التى تنتسب إلى مدين بن إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

وكانوا يسكنون فى المنطقة التى تسمى (معان) وتقع بين حدود الحجاز والشام .

وأهل مدين يسمون أيضا بأصحاب الأيكة .

والأيكة : منطقة مليئة بالشجر كانت مجاورة ة لقريه (معان) ، وكان يسكنها بعض الناس فأرسل الله شعيبا إليهم جميعا .

وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم ، فهو أخوهم فى النسب .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم ـ إذا ذكر شعيب قال : (ذاك خطيب الأنبياء) لحسن مراجعته لقومه ، وقوة حجته .

وكان قومه يعبدون الأصنام . ويطففون فى الكيل والميزان . . . فدعاهم إلى عبادة الله وحده ، ونهاهم عن الخيانة وسوء الأخلاق .

ويرى بعض العلماء : أن شعيبا أرسل إلى أمتين : أهل مدين الذين أهلكوا بالصيحة ؛ وأصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة ، وأن الله تعالى لم يبعث نبيا مرتين سوى شعيب ـ عليه السلام ـ .

ولكن المحققين من العلماء اختاروا أنهما أمة واحدة ، فأهل مدين هم أصحاب الأيكة ، أخذتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة ـ أى السحابة ـ وأن كل عذاب كان كالمقدمة للآخر .

هذا ، وقوله - سبحانه - (وإلى مدين أخاهم شعيبا ...) معطوف على ما سبق من قصة صالح - عليه السلام - عطف القصة على القصة .

أي : وكما أرسلنا صالحا - عليه السلام - إلى ثمود ، فقد أرسلنا إلى أهل مدين أخاهم شعيبا - عليه السلام - فقال لهم مقالة كل نبي لقومه : يا قوم اعبدوا الله وحده ، فإنكم لا إله لكم على الحقيقة سواه ، فهو الذي خلقكم وهو الذي رزقكم ، وهو الذي إليه مرجعكم ...

ثم بعد أن أمرهم بإخلاص العبادة لله، نهاهم عن التطفيف في الكيل والميزان فقال : (ولا تنقصوا المكيال والميزان) .

والمكيال والميزان : إسمان للآلة التي يكال بها ويوزن .

ونقص الكيل والميزان يكون من وجهين : أحدهما أن يكون الاستنقاص من جهتهم إذا باعوا لغيرهم .

وثانيهما : أن يكون الاستنقاص من جهة غيرهم إذا اشتروا منه ، بأن يأخذوا منه أكثر من حقهم .

فكأنه - عليه السلام - يقول لهم : لا تنقصوا المكيال والميزان لا عند الأخذ ولا عند الإعطاء ، فلا تعطوا غيركم أقل من حقه إذا بعتم، ولا تأخذوا منه أكثر من حقكم إذا اشتريتم .

وإلى هذين الأمرين أشار قوله - تعالى - (ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ...)

ثم بين لهم الأسباب التي دعته إلى أمرهم ونهيهم فقال : (إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط)

والخير : كلمة جامعة لكل ما يرضي الإنسان ويغنيه ويسره .

ومحيط : أي شامل بحيث لا يستطيع أحد الافلات منه . كما يحيط الظرف بالمظروف ...

أى : أخلصوا لله عبادتكم ، والتزموا العدل فى معاملاتكم ، فإنى أراكم تملكون الوفير من المال ، وتعيشون فى رغد من العيش، وفى بسطة من الرزق ، ومن كان كذلك فمن الواجب عليه أن يقابل هذه النعم بالشكر لواهبها وهو الله — تعالى — ، وأن يستعملها إستعمالا يرضيه ، وأن يعطى كل ذى حق حقه .

وإنى — أيضا — أخاف عليكم إذا ماتماديتم فى مخالفة ما آمركم به وما أنهاكم عنه ، عذاب يوم أهواله وآلامه شاملة لكل ظالم ، بحيث لايستطيع أن يهرب منها . . .

قال الشوكانى : وصف — سبحانه — اليوم بالإحاطة ، والمراد العذاب لأن العذاب واقع فى اليوم . ومعنى إحاطة عذاب اليوم بهم ، أنهم لايشذ منهم أحد عنه ، ولايجدون منه ملجأ ولا مهربا »(١) .

فأنت ترى أن شعيبا — عليه السلام — بعد أن أمرهم بما يصلح عقيدتهم ونهاهم عما يفسد معاملاتهم وأخلاقهم . . . . ذكرهم بما هم فيه من نعمة وغنى قطعا لعذرهم حتى لايقولوا له نحن فى حاجة إلى تطفيف المكيال والميزان لفقرنا ، ثم أخبرهم بأنه ماحمله على هذا النصح لهم إلا خوفه عليهم .

ثم واصل شعيب — عليه السلام — نصحه لقومه ، فأمرهم بالوفاء بعد أن نهاهم عن النقص على سبيل التأكيد، وزيادة الترغيب فى دعوته فقال: «وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، . . . .

أى : وياقوم أوفوا عند معاملاتكم أدوات كيلكم وأدوات وزنكم ، ملتزمين فى كل أحوالكم العدل والقسط .

« ولا تبخسوا الناس أشياءهم . . . ، أى : ولاتنقصوهم شيئا من حقوقهم.

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٢ ص ٥١٨ .

يقال : بخس فلان فلانا حقه إذا ظلمه وانتقصه . وهو يشمل النقص والعيب في كل شيء . . .

والجملة الكريمة تعميم بعد تخصيص ، لكى تشمل غير المكيل والموزون كالمزروع والمعدود ، والجيد والردىء . . .

قال الجمل وملخصه : وقد كرر - سبحانه - نهيهم عن النقص والبخس وأمرهم بالوفاء . . لأن القوم لما كانوا مصرين على ذلك العمل القبيح ، وهو تطفيف الكيل والميزان ومنع الناس حقوقهم ، احتيج فى المنع منه إلى المبالغة فى التأكيد ، ولاشك أن التكرير يفيد شدة الاهتمام والعناية بالمأمور به والمنهى عنه ، فلهذا كرر ذلك ليقوى الزجر والمنع من ذلك الفعل . . . »[1]

وقوله : « ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » تحذير لهم من البطر والغرور واستعمال نعم الله فى غير ماخلقت له .

قال ابن جرير : وأصل العثى شدة الإفساد ، بل هو أشد الإفساد . يقال عثى فلان فى الأرض يعثى - كرضى يرضى - إذا تجاوز الحد فى الإفساد . . »[2]

أى : ولا تسعوا فى أرض الله بالفساد ، وتقابلوا نعمه بالمعاصى ، فتسلب عنكم ثم أرشدهم إلى أن ما عند الله خير وأبقى مما يجمعونه عن الطريق الحرام فقال : « بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ » .

ولفظ « بقية » اسم مصدر من الفعل بقى ضد فنى . وإضافتها إلى الله - تعالى - إضافة تشريف وتيمن .

أى : مايبقيه الله لكم من رزق حلال ، ومن حال صالح ، ومن ذكر حسن ، ومن أمن وبركة فى حياتكم . . . بسبب التزامكم بالقسط فى معاملاتكم ، وهو خير لكم من المال الكثير الذى تجمعونه عن طريق بخس الناس أشياءهم .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٤١٦ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٣٠٨ .

وجملة « إن كنتم مؤمنين » معترضة لبيان أن هذه الخيرية لاتتم إلا مع الإيمان .

أي : مايبقيه الله لكم من الحلال ... هو خير لكم ، إن كنتم مصدقين بما أرسلت به إليكم، أما إذا لم تكونوا كذلك فإن تكون بقية الله خيراً لكم، لأنها لا تكون إلا للمؤمنين، فاستجيبوا لنصيحتي لتسعدوا فى دنياكم وآخرتكم.

وجملة « وما أنا عليكم بحفيظ » تحذير لهم من مخالفته بعد أن أدى ماعليه من بلاغ .

أي : وما أنا عليكم بحفيظ أحفظ لكم أعمالكم وأحاسبكم عليها ، وأجازيكم بها الجزاء الذى تستحقونه . وإنما أنا ناصح ومبلغ ما أمرنى ربى بتبليغه ، وهو وحده — سبحانه — الذى سيتولى مجازاتكم .

وإلى هنا نجد شعيبا — عليه السلام — قد أرشد قومه إلى مايصلحهم فى عقائدهم ، وفى معاملاتهم ، وفى صلاتهم بعضهم ببعض، وفى سلوكهم الشخصى، بأسلوب حكيم جامع لكل مايسعد ويهدى للتى هى أقوم ..

فماذا كان رد قومه عليه ؟

لقد كان ردهم عليه — كما حكاه القرآن الكريم — طافحا بالاستهزاء به ، والسخرية منه ، فقد قالوا له : « ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء ، إنك لأنت الحليم الرشيد » .

أي : قال قوم شعيب له — على سبيل التهكم والاستهزاء — : ياشعيب أصلاتك — التى تزعم أن ربك كلفك بها والتى أنت تكثر منها — تأمرك أن نترك عبادة الأصنام التى وجدنا عليها آباءنا ؟ والاستفهام للإنكار والتعجب من شأنه .

وأسندوا الأمر إلى الصلاة من بين سائر العبادات التى كان يفعلها ، لأنه — عليه السلام — كان كثير الصلاة ، وكانوا إذا رأوه يصلى سخروا منه .

وجملة « أو أن تفعل فى أموالنا مانشاء » إنكار منهم لترك ماتعودوه من نقص الكيل والميزان بعد إنكارهم لترك عبادة الأصنام .

وهى معطوفة على « ما » فى قوله « مايعبد آباؤنا » و« أو » بمعنى الواو .

أى : أصلاتك تأمرك أن نترك عبادة الأصنام ، وتأمرك أن نترك ماتعودنا فعله فى أموالنا من التطفيف فى الكيل والميزان . . .

إن كانت صلاتك تأمرك بذلك ، فهى فى نظرنا صلاة باطلة ، لاوزن لها عندنا ، بل نحن نراها لونا من ألوان جنونك وهذيانك . . .

وجملة « إنك لأنت الحليم الرشيد » زيادة منهم فى السخرية منه — عليه السلام — وفى التهكم عليه ، فكأنهم — قبحهم الله — يقولون له : كيف تأمرنا بترك عبادة الأصنام ، وبترك النقص فى الكيل والميزان ، مع علمك اليقينى بأن هذين الأمرين قد بنينا عليهما حياتنا ، ومع زعمك لنا بأنك أنت الحليم الذى يتأنى ويتروى فى أحكامه ، الرشيد الذى يرشد غيره إلى ماينفعه؟

إن هذين الوصفين لايليقان بك ، مادمت تأمرنا بذلك ، وإنما اللائق بك أضدادهما ، أى الجهالة والسفه والعجلة فى الأحكام .

قال صاحب الكشاف : وأرادوا بقولهم : « إنك لأنت الحليم الرشيد » نسبته إلى غاية السفه والغى ، فعكسوا ليتهكموا به ، كما يتهكم بالشحيح الذى لايبض حجره ، فيقال له : لو أبصرك حاتم لسجد لك . وقيل معناه : إنك للمتواصف بالحلم والرشد فى قومك . يعنون أن ما تأمر به لايطابق حالك وما اشتهرت به . . . »[1]

هكذا رد قوم شعيب عليه ، وهو رد يحمل السخرية فى كل مقطع من مقاطعه ، ولكنها سخرية الشخص الذى انطمست بصيرته ، وقبحت سريرته!!

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٨٧ .

ومع كل هذه السفاهة ؛ نرى شعيبا – عليه السلام – وهو خطيب الأنبياء – يتغاضى عن سفاهاتهم ، لأنه يحس بقصورهم وجهلهم ، كما يحس بقوة الحق الذي أتاهم به من عند ربه ، فيرد عليهم بقوله : « قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي . . . » والبينة : مايتبين به الحق من الباطل ، ويتميز به الهدى من الضلال .

أي : قال شعيب لقومه بأسلوب مهذب حكيم : ياقوم أخبروني إن كنت على حجة واضحة ، وبصيرة مستنيرة منحني إياها ربي ومالك أمري .

« ورزقني منه » – سبحانه – « رزقا حسنا » يتمثل في النبوة التي كرمني بها ، وفي المال الحلال الذي بين يدي ، وفي الحياة الطيبة التي أحياها .

وجواب الشرط محذوف والتقدير : أخبروني إن كنت كذلك . هل يليق بي بعد ذلك أن أخالف أمره مسايرة لأهوائكم ؟ كلا إنه لا يليق بي ذلك ، وإنما اللائق بي أن أبلغ جميع ما أمرني بتبليغه بدون خوف أو تقصير .

ثم يكشف لهم عن أخلاقه وسلوكه معهم فيقول : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه . . . . »

أي : ما أريد بأمري لكم بعبادة الله وحده ، وبنهيي إياكم عن التطفيف والبخس ، مجرد مخالفتكم ومنازعتكم ومماكستكم ، أو أن آمركم بشيء ثم لا أفعله ، أو أنهاكم عنه ثم أفعله ، من أجل تحقيق منفعة دنيوية ..

كلا ، كلا إني لا أريد شيئا من ذلك وإنما أنا إنسان يطابق قولي فعلي ، وأختار لكم ما أختاره لنفسي .

قال صاحب الكشاف ماملخصه : قوله « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » يقال : خالفني فلان إلى كذا : إذا قصده وأنت مول عنه . وخالفني عنه : إذا ولى عنه وأنت تقصده .

ويلقاك الرجل صادرا عن الماء فتسأله عن صاحبه فيقول : خالفني إلى

الماء . يريد أنه ذهب إليه واردا،وهو ذهب عنه صادرا ، ومنه قوله سبحانه: « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » يعنى : ما أريد أن أسبقكم إلى شهواتكم التى نهيتكم عنها لأستبد بها دونكم »[1] .

وقال الإمام ابن كثير . وعن مسروق أن امرأة جاءت إلى ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ فقالت له : أأنت الذى تنهى عن المواصلة ـ أى التى تصل شعرها بشعر آخر ـ ؟ قال : نعم . فقالت : فلعله فى بعض نسائك . فقال : ماحفظت إذاً وصية العبدالصالح « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه »[2].

ثم يبين لهم أنه مايريد لهم إلاالإصلاح فيقول : « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ... »

أى : ما أريد بما أنصحكم به إلا إصلاحكم وسعادتكم ، ومادمت أستطيع ذلك ، وأقدر عليه ، فلن أقصر فى إسداء الهداية لكم .

ثم يفوض الأمور إلى الله ـ تعالى ـ فيقول : وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب » .

أى : وما توفيقى فيما أدعوكم إليه من خير أوأنهاكم عنه من شر إلا بتأييد الله وعونه ، فهو وحده الذى عليه أتوكل وأعتمد فى كل شئونى ، وهووحده الذى اليه أرجع فى كل أمورى .

ثم يواصل شعيب ـ عليه السلام ـ نصحه لقومه ، فينتقل بهم إلى تذكيرهم بمصارع السابقين ، محذراً إياهم من أن يكون مصيرهم كمصير الظالمين من قبلهم فيقول : « ويا قوم لايجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أو قوم هود ، أو قوم صالح ... »

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٧ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ صـ ٢٧٥

ومعنى « لايجرمنكم » لايحملنكم ، مأخوذ من جرمه على كذا ، إذا حمله عليه

أو بمعنى لا يكسبنكم من جرم بمعنى كسب ، غير أنه لا يكون إلا فى كسب

مالا خير فيه . ومنه الجريمة ، وهى اقتراف الجرم والذنب .

وأصل الجرم: قطع الثمرة من الشجرة ، وأطلق على الكسب ، لأن الكاسب

لشىء ينقطع له .

وقوله « شقاق » من الشقاق بمعنى الخلاف والعداوة ، كأن كل واحد

من المتعاديين فى شق غير الشق الذى يكون فيه الآخر . والشق : الجانب .

والمعنى ، وياقوم لاتحملنكم عداوتكم لى ، على افتراء الكذب على ، وعلى

التمادى فى عصيانى ومحاربتى . فإن ذلك سيؤدى بكم إلى أن يصيبكم العذاب

الذى أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح .

وقوله : « وماقوم لوط منكم ببعيد » تذكيرلهم بأقرب المهلكين اليهم .

أى : إذا كنتم لم تتعظوا بما أصاب قوم نوح من غرق ، وبما أصاب قوم

هود من ريح دمرتهم ، وبما أصاب قوم صالح من صيحة أهلكتهم ، فاتعظوا

بما أصاب قوم لوط من عذاب جعل أعلى مساكنهم أسفلها ، وهم ليسوا ببعيدين

منكم لا فى الزمان ولا فى المكان .

قال الشيخ الفاضل بن عاشور : والمراد بالبعد - فى قوله : وما قوم لوط

منكم ببعيد - بعد الزمن والمكان والنسب .

فزمن لوط - عليه السلام - غير بعيد من زمن شعيب - عليه السلام - .

وديار قوم لوط قريبة من ديار قوم شعيب ، إذ منازل مدين عند عقبة

أيلة بجوار معان مما يلى الحجاز ، وديار قوم لوط بناحيـــة الأردن الى

البحر الميت .

وكان مدين بن ابراهيم - عليهما السلام - وهو جد قبيلة شعيب ، المسمى

باسمه، متزوجا بابنة لوط »(١).

ثم فتح لهم بعد ذلك باب الأمل فى رحمة الله ، إن هم تابوا اليه - سبحانه - وأنابوا فقال : «واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود » .

أى : واستغفروا ربكم من كل مافرط منكم من ذنوب ثم توبوا إليه توبة صادقة نصوحا :

« ان ربى » ومالك أمرى «رحيم» أى: واسع الرحمة لمن تاب إليه «ودود» أى : كثير الود والمحبة لمن أطاعه .

وهكذا نجد شعيبا - عليه السلام - وهو خطيب الأنبياء - يلون لقومه النصح ، وينوع لهم المواعظ . ويطوف بهم فى مجالات الترغيب والترهيب . .

ولكن القوم كانوا قد بلغوا من الفساد نهايته ، ومن الجهل أقصاه . . . فقد ردوا على هذه النصائح الغالية بقولهم : « قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول . . . »

أى : قال قوم شعيب له على سبيل التحدى والتكذيب : ياشعيب إننا لا نفهم الكثير من قولك ، لأنه قول لم نألفه ولم تتقبله نفوسنا ، ولقد أطلت فى دعوتنا إلى عبادة الله وترك النقص فى الكيل والميزان حتى مللنا دعوتك وسئمناها ، وصارت ثقيلة على مسامعنا ، وخافية على عقولنا . .

فرادهم بهذه الجملة الاستهانة به ، والصدود عنه ، كما يقول الرجل لمن لا يعبأ بحديثه : لا أدرى ما تقوله ، ولا أفهم ماتتفوه به من ألفاظ .

قال : أبو السعود ماملخصه : والفقه : معرفة غرض المتكلم من كلامه ، أى : مانفهم مرادك وإنما قالوا ذلك بعد أن سمعوا منه دلائل الحق البين على أحسن وجه وأبلغه ، وضاقت عليهم الحيل ، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلا . . .

---

(١) تفسير التحرير والتنوير حـ ١٢ ص ١٤٧ للشيخ محمد الطاهر بن عاشور

كما هو ديدن المفحم المحجوج ، يقــابل النصائح البينات بالسب والإبرا
والإرعاد . . . . إذ جعلوا كلامه المشتمل على الحكم من قبيل مالا يفه
معناه . . . . . »(١)

ثم قالوا له ـ ثانيا ـ « وإنا لنراك فينا ضعيفا » أي : لا قوة لك إلى جانب
قوتنا ، ولا قدرة عندك على مقاومتنا إن أردنا قتلك أو طردك من قريتنا .

ثم قالوا له ـ ثالثا ـ « ولولا رهطك لرجمناك » ورهط الرجل : قو
وعشيرته الأقربون . ومنه الراهط لجحر اليربوع ، لأنه يحتمى فيه . . .

ولفظ (الرهط) اسم جمع يطلق غالبا على العصابة دون العشرة
الرجال ليس فيهم امرأة .

أي : ولولا عشيرتك التي هي على ملتنا وشريعتنا لرجمناك بالحجارة ح
تموت ، ولكن مجاملتنا لعشيرتك التي كفرت بك هي التي جعلتنا نبقي عليك

ثم قالوا له ـ رابعا ـ (وما أنت علينا بعزيز) أي : وما أنت علينا بمكر
أو محبوب أو قوى حتى نمتنع عن رجمك ، بل أنت فينا الضعيف
المكروه . . . .

وهنا نجد شعيبا ـ عليه السلام ـ ينتقل فى أسلوب مخاطبته لهم من اللين
الشدة ، ومن التلطف إلى الإنكار ، دفاعا عن جلال ربه ـ سبحانه ـ فيقو
لهم : (قال ياقوم أرهطى أعز عليكم من الله ...)

أي : أرهطى وعشيرتى الأقربون ، الذين من أجلهم لم ترجمونى ، أ
وأكرم عندكم من الله ـ تعالى ـ الذى هو خالقكم ورازقكم ومميتكم ومحييكم
(واتخذتموه وراءكم ظهريا) أي : وجعلتم أوامره ونواهيه التى جئت
بها من لدنه ـ سبحانه ـ كالشيء المنبوذ المهمل الملقى من وراء الظهر بس
كفركم وطغيانكم (إن ربى بما تعملون محيط) أي : إن ربى قد أحاط

(١) تفسير أبي السعود ج ص

بأقوالكم وأعمالكم السيئة ، وسيجازيكم عليها بما تستحقون من عذاب مهين .

ثم زاد فى توبيخهم وتهديدهم فقال (وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون ، من يأتيه عذاب يخزيه ، ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب) والمكانة مصدر مكن كـكرم ، يقال مكن فلان من الشىء مكانه ، اذا تمكن منه أبلغ تمكن . والأمر فى قوله (اعملوا) للتهديد والوعيد .

أى : اعملوا كل مافى إمكانكم عمله معى ، وابذلوا فى تهديدى ووعيدى ماشئتم ، فإن ذلك لن يضيرنى ، وكيف يضيرنى وأنا المتوكل على الله المعتمد على عونه ورعايته ... ؟

وإنى سأقابل عملكم السوء هذا بعمل آخر حسن من جانبى . وهو الدعوة إلى وحدانية الله — تعالى — وإلى مكارم الأخلاق .

وقوله « سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ... » ستئناف مؤكد لتهديده لهم .

أى : اعملوا ماشئتم وأنا سأعمل ماشئت . فإنكم بعد ذلك سوف تعلمون من منا الذى سينزل به عذاب يخزيه ويفضحه ويهينه ، ومن منا الذى هو كاذب فى قوله وعمله .

« وارتقبوا » عاقبة تكذيبكم للحق « إنى معكم رقيب » أى : إنى معكم منتظر ومراقب لما سيفعله الله — تعالى — بكم .

وبذلك نرى شعيبا - عليه السلام - فى هاتين الآيتين ، قد استعمل مع قومه أسلوبا آخر فى المخاطبة ، يمتاز بالشدة عليهم والتهديد لهم ، لاغضبا لنفسه ، وإنما لأجل حرمات الله - تعالى - ، والدفاع عن دينه .

ولم يطل انتظار شعيب - عليه السلام - ومراقبته لما يحدث لقومه ، بل جاء عقاب الله - تعالى - لهم بسرعة وحسم ، بعد أن لجوا فى طغيانهم ، وقد

حكى ـ سبحانه ـ ذلك فقال : ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنـــوا معه برحمة منا . . . ،

أى : وحين جاء أمرنا بعذابهم ، وحل أوان هذا العذاب ، نجينا نبينا شعيبا ونجينا الذين آمنوا به وصدقوه ، حالة كونهم مصحوبين برحمة عظيمة كائنة منا لا من غيرنا .

، وأخذت الذين ظلموا ، من قومه ، الصيحة ، التى زلزلتهم وأهلكتهم ، فأصبحوا فى ديارهم ، التى كانوا يسكنونها .

، جاثمين ، أى : هامدين ميتين لا تحس لهم حركة ، ولا تسمع لهم ركزا .. من الجثوم وهو للناس والطير بمنزلة البروك للإبل . يقال . جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم إذا وقع على صدره ولزم مكانه فلم يبرحه .

، كأن لم يغنوا فيها ، أى : كأن هؤلاء الهلكى من قوم شعيب ، لم يعيشوا فى ديارهم قبل ذلك عيشة ملؤها الرغد والرخاء والأمان . . .

يقال : غنى فلان بالمكان ، إذا أقام به وعاش فيه فى نعمة ورغد . . .

، ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ، أى : ألا هلا كا مصحوبا بالخزى واللعنة والطرد من رحمة الله لقبيلة مدين ، كما هلكت من قبلهم قبيلة ثمود .

وهكذا طويت صفحة أخرى من صفحات الظالمين وهم قوم شعيب — عليه السلام — كما طويت من قبلهم صفحات قوم نوح وهود وصالح ولوط — عليه السلام — .

هذا ، ومن أهم العبر والعظات التى تتجلى واضحة فى قصة شعيب مع قومه كما جاءت فى هذه السورة الكريمة :

أن الداعى إلى الله لكى ينجح فى دعوته، عليه أن ينوع خطابه للمدعوين، بحيث يشتمل توجيهه على الترغيب والترهيب ، وعلى الأسباب وماتؤدى إليه من نتائج، وعلى مايقنع العقل ويقنع العاطفة . . .

ففي هذه القصة نجد شعيبا — عليه السلام — يبدأ دعوته بأمر قومه بعبادة الله — تعالى — ، ثم ينهاهم عن أبرز الرذائل التي كانت منتشرة وهي نقص المكيال والميزان ، ثم يبين لهم الأسباب التي حملته على ذلك : « إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط » .

ثم ينهاهم نهيا عاما عن الإفساد في الأرض « ولا تعثوا في الأرض مفسدين »

ثم يرشدهم إلى أن الرزق الحلال مع الإيمان والاستقامة ، خير لهم من التشبع بزينة الحياة الدنيا بدون تمييز بين ماهو صالح وماهو طالح : « بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين .... »

ثم يذكرهم بأنه لا يأمرهم إلا بما يأمر به نفسه ، ولا ينهاهم إلا عما ينهاها عنه وأنه ليس ممن يقولون بأفواههم ماليس في قلوبهم « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ... »

ثم يذكرهم بمصارع السابقين ، ويحذرهم من أن يسلكوا مسلكهم ، لأنهم لو فعلوا ذلك لهلكوا كما هلك الذين قبلهم : « وياقوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح .... »

ثم يفتح لهم باب الأمل في عفو الله عنهم متى استغفروه وتابوا إليه : « واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود » .

ثم نراه يثور عليهم عندما يراهم يتجاوزون حدودهم بالنسبة لله — تعالى — وللحق الذي جاءهم به من عنده — سبحانه — : « أرهطي أعز عليكم من الله ، واتخذتموه وراءكم ظهريا ، إن ربي بما تعملون محيط . وياقوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون ... »

وهكذا نجد شعيبا — عليه السلام — وهو خطيب الأنبياء كما وصفه الرسول — صلى الله عليه وسلم — يرشد قومه إلى ما يصلحهم ويسعدهم بأسلوب حكيم ، جامع لكل ألوان التأثير ، والتوجيه السديد .

وليت الدعاة إلى الله فى كل زمان ومكان يتعلمون من قصة شعيب ـ عليه السلام ـ مع قومه أسلوب الدعوة إلى الله ـ تعالى ـ .

* * *

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها عن قصص الأنبياء مع أقوامهم ، بالإشارة إلى قصة موسى ـ عليه السلام ـ مع فرعون وملئه ، فقال ـ تعالى ـ :

« ولقد أرْسَلْنَا موسَى بآياتِنا وسُلطانٍ مبينٍ (٩٦) إلى فِرعَونَ ومَلَئِه فاتّبعُوا أمْرَ فِرعَونَ وما أمرُ فرعونَ برشيدٍ (٩٧) يقدُمُ قومَه يومَ القيامةِ فأوردَهُم النارَ وبئسَ الوِرْدُ المورُودُ (٩٨) وأُتبِعُوا فى هذِه لعنةً ويومَ القيامةِ بئسَ الرفدُ المرفودُ (٩٩) » .

وموسى ـ عليه السلام ـ هو ابن عمران ، من نسل « لاوى » بن يعقوب.
ويرى بعض المؤرخين أن ولادة موسى كانت فى حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وأن بعثته كانت فى عهد منفتاح بن رمسيس الثانى .

والمراد بالآيات : الآيات التسع المشار إليها فى قوله ـ تعالى ـ « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات .... »[1]

وهى : العصا، واليد البيضاء، والسنون العجاف، ونقص الثمرات، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والسلطان المبين : الحجة الواضحة ، والبرهان الظاهر على صدقه ، وسمى ذلك سلطانا لأن صاحب الحجة والبرهان على مايدعى ، يقهر ويغلب من لا حجة ولا برهان معه ، كما يقهر السلطان غيره .

---

(١) سورة الإسراء الآية ١٠١ .

والمعنى : ولقد أرسلنا نبينا موسى - عليه السلام - بمعجزاتنا الدالة على صدقه ، وبحجته القوية الواضحة ، الشاهدة على أنه رسول من عندنا ، إلى فرعون وملئه الذين هم خاصته ، وسادات قومه وكبراؤهم ...

وخصهم بالذكر مع فرعون ، لأنهم هم الذين كانوا ينفذون أوامره ، ويعاونونه على فساده والضمير فى قوله « فاتبعوا أمر فرعون » يعود إلى الملأ .

أى : فاتبعوا أمره فى كل ماقرره من كفر ، وفى كل ما أشار به من فساد .

وفى هذه الجملة الكريمة — كما يقول الزمخشرى — تجهيل لهم ، حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لايخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل ، وذلك أنه ادعى الألوهية وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذى لا يأتى إلا من شيطان مارد ، فاتبعوه وسلموا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته .

وقال - سبحانه - « فاتبعوا » ولم يقل فاتبعوا أمره ، للتشهير به ، والإعلان عن ذمه الذى صرح به فى قوله - سبحانه - « وما أمر فرعون برشيد » .

والرشيد بزنة - فعيل - من الفعل رشد من باب نصر وفتح : هو الشخص المتصف بإصابة الرأى ، وجودة التفكر ، وأضيف الرشد إلى الأمر على سبيل المجاز ، مبالغة فى اشتمال أمر فرعون على ماينافض الرشد والسداد ، ويطابق الغى والفساد .

أى : ماشأن فرعون وأمره بذى رشد وهـــدى ، بل هو محض الغى والضلال ، فكان من الواجب على ملئه أن ينبذوه ويهملوه ، بدل أن يطيعوه ويتبعوه ....

ثم بين - سبحانه - سوء مصيره ومصير أتباعه فقال : « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود » .

« يقدم — كينصر — بمعنى يتقدم مأخوذ من الفعل قدم - بفتح الدال —

تقول : قدم الرجل يقدم قدماً وقدوما بمعنى : تقدم ، ومنه قادمة الرحل بمعنى مقدمته .

وقوله « فأوردهم » من الإيراد وهو جعل الشيء واردا إلى المكان وداخلا فيه .

والورد — بكسر الواو — يطلق على المــاء الذى يرد إليه الإنسان والحيوان للشرب .

والمعنى : يتقدم فرعون قومه يوم القيامة إلى جهنم ، كما كان يتقدمهم فى الكفر فى الدنيا « فأوردهم النار » أى : فدخلها وأدخلهم معه فيها .

وعبر بالماضى مع أن ذلك سيكون يوم القيامة ، لتحقيق الوقوع وتأكده ، وقد صرح القرآن بأنهم سيدخلون النار بمجرد موتهم فقال — تعالى — : « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب »(١) .

وقوله « وبئس الورد المورود » أى : وبئس الورد الذى يردونه النار . لأن الورد — الذى هو النصيب المقدر للإنسان من الماء — إنما يذهب إليه قاصده لتسكين عطشه ، وإرواء ظمئه ، وهؤلاء إنما يذهبون إلى النار التى هى الضد من ذلك .

ثم صرح — سبحانه — بلعنتهم فى الدارين فقال : « وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة » ...

أى : إن اللعنة والفضيحة لحقت بهم واتبعتهم فى الدنيا وفى الآخرة، كما قال — تعالى — فى آية أخرى : « واتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين »(١) .

---

(١) سورة غافر الآية ٤٦ .

(٢) سورة القصص الآية ٤٢ .

وجملة «بئس الرفد المرفود» مستأنفة لإنشاء ذم اللعنة ، والمخصوص بالذم محذوف دل عليه ذكر اللعنة . أى بئس الرفد هى .

الرفد العطاء المعطى لهم تلك اللعنة المضاعفة التى لا بستهم فى الدنيا والآخرة .

وسميت اللعنة رفدا على سبيل التهكم بهم ، كما فى قول القائل : تحية بينهم ضرب وجيع فكأنه — سبحانه — يقول : هذه اللعنة هى العطاء المعطى من فرعون لاتباعه الذين كانوا من خلفه كقطيع الأغنام الذى يسير خلف قائده بدون تفكر أو تدبر ....

وبئس العطاء عطاؤه لهم ...

وإلى هنا تكون هذه السورة الكريمة قد حدثتنا عن قصة نوح مع قومه، وعن قصة هود مع قومه ، وعن قصة صالح مع قومه ، وعن قصة إبراهيم مع الملائكة ، وعن قصة لوط مع قومه ومع الملائكة ، وعن قصة شعيب مع قومه ، وعن قصة موسى مع فرعون وملئه .

ويلاحظ أن السورة الكريمة قد ساقت لنا تلك القصص حسب ترتيبها التاريخى والزمنى ، لأهداف من أهمها :

١ — إبراز وحدة العقيدة فى دعوة الأنبياء جميعا ، فكل نبى قد قال لقومه : أعبدوا الله مالكم من إله غيره ... ثم يسوق لهم الأدلة على صدقه فيما يبلغه عن ربه .

٢ — إبراز أن الناس فى كل زمن ومكان فيهم الأخيار الذين يتبعون الرسل ، وفيهم الأشرار الذين يحاربون الحق ....

٣ — بيان العاقبة الحسنة التى انتهى إليها المؤمنون بسبب إيمانهم وصدقهم وعملهم الصالح .... والعاقبة السيئة التى انتهى إليها الكافرون بسبب كفرهم وإعراضهم عن الحق ...

قال - تعالى - « فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض . ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » .

* * *

ثم ساقت السورة بعد ذلك حتى نهايتها آيات كريمة ، اشتملت على تعليقات وتعقيبات متنوعة ، وهذه التعليقات والتعقيبات قوية الصلة بما سبقها من آيات ....

وكان التعقيب الأول يهدف إلى بيان أن هذه القرى المهلكة التى منها ماهو قائم ومنها ماهو حصيد ، ماظلم الله - تعالى - أهلها ، ولكن هم الذين ظلموا أنفسهم بعصيانهم الرسل ، وإصرارهم على الكفر والعناد . قال - تعالى - :

« ذلكَ مِنْ أنباءِ القُرَى نقصُّه عليكَ منها قائمٌ وحَصِيدٌ (١٠٠) ومَا ظَلَمناهُم ولكِنْ ظلَمُوا أنفُسَهم فَمَا أَغنَتْ عنهُم آلهتُهم التى يَدْعُونَ من دونِ اللهِ من شىءٍ لما جاء أمرُ ربِّك وما زَادُوهُم غيرَ تَتْبِيبٍ (١٠١) وكذلكَ أخذُ ربِّك إذَا أَخذَ القُرى وهى ظَالمةٌ إنَّ أَخْذَه أليم شَديدٌ (١٠٢) » .

أى : ذلك الذى قصصناه عليك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة الكريمة ، هو جزء ، من أنباء القرى ، المهلكة .

ونحن ، نقصه عليك ، فى هذا القرآن عن طريق وحينا الصادق ، ليعتبر به الناس ، وليعلموا أن هذا القرآن المشتمل على هذا القصص الذى لاعلم لهم به من عند الله .

وافتتح - سبحانه - الكلام باسم الإشارة المفيد للبعد ، للتنويه بشأن هذه الأنباء التي سبق الحديث عنها ، وللإشعار بأنها أنباء هامة فيها الكثير من العظات والعبر لقوم يعقلون .

والضمير في قوله « منها قائم وحصيد » يعود إلى تلك القرى المهلكة ، والجملة مستأنفة للتحريض على النظر والاعتبار ، فكأن سائلا سأل ما حال هـــذه القرى أباقية آثارها أم عفى عليها الزمن ؟ فكان الجواب منها قائم وحصيد .

أي : من هـــذه القرى المهلكة ما آثارها ما زالت قائمة يراها الناظر إليها ، كآثار قوم ثمود .

ومنها ما آثارها عفت وزالت وانطمست وصارت كالزرع المحصود الذي استؤصل بقطعه ، فلم تبق منه باقية ، كديار قوم نوح .

ففي هـــذه الجملة الكريمة تشبيه بليغ ، حيث شبه - سبحانه - القرى التي بعض آثارها مازال باقيا بالزرع القائم على ساقه ، وشبه مازال منها واندثر بالزرع المحصود .

وحصيد مبتدأ محذوف الخبر لدلالة ما قبله عليه . أي منها قائم ومنها حصيد .

وقوله - سبحانه - « وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ... » بيان لمظاهر عدله في قضائه وأحكامه .

والضمير المنصوب في « ظلمناهم » يعود إلى أهل هـذه القرى ، لأنهم هم المقصودون بالحديث .

أي : وما ظلمنا أهل هذه القرى بإهلاكنا إياهم ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، بسبب إصرارهم على الكفر ، وجحودهم للحق ، واستهزائهم بالرسل الذين جاءوا لهدايتهم ....

ثم بين ـ سبحانه ـ موقف آلهتهم المخزى منهم فقال : « فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ... »

أى : أن هؤلاء المهلكين عندما نزل بهم العذاب ، لم تنفعهم أصنامهم التى كانوا يعبدونها من دون الله شيئا من النفع ... بل هى لم تنفع نفسها فقد اندثرت معهم كما اندثروا ،

والفاء فى قوله ـ سبحانه ـ « فما أغنت .. » للتفريع على ظلمهم لأنفسهم ، لأن اعتمادهم على شفاعة الأصنام ، وعلى دفاعها عنهم ... من مظاهر جهلهم وغباتهم وظلمهم لأنفسهم .

و « من » فى قوله : « من شىء » لتأكيد انتفاء النفع والإغناء : أى : لم تغن عنهم شيئا ولو قليلا من الاغناء ، ولم تنفعهم لا فى قليل ولا كثير ...

وجملة « وما زادوهم غير تتبيب » تأكيد لنفى النفع ، وإثبات للضر والخسران .

والتتبيب : مصدر تب بمعنى خسر . وتبب فلان فلانا إذا أوقعه فى الخسران .

ومن قوله ـ تعالى ـ « تبت يدا أبى لهب وتب » أى : هلكتا وخسرتا كما قد هلك وخسر هو .

أى : وما زادتهم أصنامهم التى كانوا يعتمدون عليها فى دفع الضر سوى الخسران والهلاك .

قال الإمام الرازى : والمعنى أن الكفار كانوا يعتقدون فى الأصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار . ثم إنه ـ تعالى ـ أخبر أنهم عند مساس الحاجة إلى المعين . ماوجدوا منها شيئا لا جلب نفع ولا دفع ضر ، ثم كما لم يجدوا ذلك فقد وجدوا ضده ، وهو أن ذلك الاعتقاد زالت عنهم به منافع الدنيا والآخرة ، وجلب لهم مضارهما ، فكان ذلك من أعظم موجبات

الخسران »(١) .

ثم بين - سبحانه - سنته فى عقاب الظالمين فى كل زمان ومكان فقال : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة .... »

والكاف فى « وكذلك » بمعنى مثل . والمراد بالقرى : أهلها الظالمون . والأخذ : هو العقاب المباغت السريع : يقال أخذ فلان الموت ، إذا نزل به بسرعة وقوة .

أي : ومثل ذلك الأخذ والهلاك للظالمين السابقين، يكون أخذ ربك وعقابه لكل ظالم يأتى بعدهم وينهج نهجهم .

وجملة « وهى ظالمة » فى موضع الحال من القرى ، وفائدة هذه الحال الإشعار بأن عقابهم كان بسبب ظلمهم ، وفى ذلك مافيه من التحذير لكل ظالم لا يبادر بالإقلاع عن ظلمه قبل فوات الأوان .

والمراد بالظلم ما يشمل الكفر وغيره من الجرائم والمعاصى التى نهى عنها، كالكذب وشهادة الزور ، وأكل أموال الناس بالباطل .

وقوله : « إن أخذه أليم شديد » زيادة فى التحذير من الوقوع فى الظلم . أى : إن أخذه - سبحانه - للظالمين عظيم إيلامه ، شديد وقعه ، لاهوادة فيه ، ولا مخلص منه .

روى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . ثم قرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد »(٢) .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٥٦

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٢٧٩

ثم بين ـ سبحانه ـ أن ما ساقه فى هـذا القرآن عن أحوال السابقين فيه العبرة لمن اعتبر ، وفيه العظة لمن خاف عذاب الآخرة الذى ينقسم الناس فيه إلى شقى وسعيد ، فقال ـ تعالى ـ :

« إنّ فى ذلكَ لآيةً لمَن خافَ عذابَ الآخرةِ ذلكَ يومٌ مجموعٌ له الناسُ وذلكَ يومٌ مشهود (١٠٣) وما نُؤَخِّرُهُ إلا لأجلٍ معدودٍ (١٠٤) يومَ يأتِ لا تَكَلَّمُ نفسٌ إلا بإذنِه فمنهم شقيٌّ وسعيد (١٠٥) فأمَّا الذينَ شَقُوا ففى النـارِ لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ (١٠٥) خالدينَ فيها ما دامَتِ السمواتُ والأرضُ إلا ما شاء ربُّك ، إنّ ربَّك فعَّالٌ لمـا يريدُ (١٠٦) وأمَّا الذينَ سُعِدُوا ففِي الجنَّةِ خالدينَ فيها ما دَامَتِ السمواتُ والأرضُ إلا ما شاء ربُّكَ عطاءً غيرَ مجذُوذٍ (١٠٧) » .

أى « إن فى ذلك » القصص الذى قصصناه عليك ـ يا محمد ـ : والمشتمل على بيان سنة الله التى لا تتخلف فى إهلاك الظالمين .

« لآية » أى : لعبرة عظيمة ، وعظة بليغة ، وحجة واضحة :

« لمن خاف عذاب الآخرة » لأنه هو المنتفع بالعبر والعظات لصدق إيمانه ، وصفاء نفسه ، ولإيقانه بأن هنـاك فى الآخرة ثوابا وعقابا ، وحسابا على الأعمال الدنيوية .. .

أما الذى ينكر الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ، فإنه لا يعتبر بما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى دمرهم تدميرا ، بل ينسب ذلك إلى أسباب طبيعية أو فلكية أو غيرهما ، لا علاقة لها بكفرهم وظلمهم وطغيانهم . . . .

ولأن الخائف من عذاب الآخرة ، عندما يرى ما حل بالمجرمين فى الدنيا

من عقاب، يزداد إيمانا على إيمانه، وتصديقا على تصديقه، بأن الله - تعالى - قادر على أن يعذبهم فى الآخرة عذابا أشد وأبقى من عذاب الدنيا ...

ثم بين - سبحانه - أن يوم القيامة آت لا ريب فيه فقال: «ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود»:

واسم الإشارة فى الموضعين، يعود إلى يوم القيامة المدلول عليه بذكر عذاب الآخرة قبل ذلك. واللام فى قوله - سبحانه - «مجموع له» لام العلة.

أى: ذلك اليوم وهو يوم القيامة، يوم يجمع الناس فيه لأجل محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، ويشهده جميع الخلائق الذين يؤمرون بشهوده، دون أن يغيب منهم أحد قال صاحب الكشاف: و«الناس» رفع باسم المفعول الذى هو (مجموع) كما يرفع بفعله إذا قلت يجمع له الناس.

فإن قلت: لأى فائدة أوثر إسم المفعول على فعله؟

قلت: لما فى إسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه يوم لابد من أن يكون ميعادا مضروبا لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة. وهو أثبت - أيضا - لإسناد الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه.

ونظيره قول المتهدد: إنك لمنهوب مالك، محروب قومك، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس فى الفعل....

والمراد بالمشهود: الذى كثر شاهدوه، ومنه قولهم: لفلان مجلس مشهود، وطعام محضور... والغرض من ذلك، وصف هذا اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام، بأنه اليوم الذى يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد...»(1)

---

(1) تفسير الكشاف جـ ٢ صـ ٢٩٢ - بتصرف وتلخيص.

ثم قال — تعالى — « وما نؤخره إلا لأجل معدود »

والأجل فى اللغة : الوقت المضروب لانتهاء مدة معينة . فأجل الإنسان؛ هو الوقت المحدد لانقضاء عمره .

والمعدود : أصله المحسوب ، والمراد به هنا : المحدد بمدة معينة لايزيد عليها ولا يتأخر عنها .

أى : أننا لا نؤخرهذا اليوم إلا لوقت محدود معلوم لنا، فإذا ما جاءموعد هذا الوقت ، حل هذا اليوم الهائل الشديد وهو يوم القيامة . الذى اقتضت حكمتنا عدم اطلاع أحد على موعده .

ثم ذكر — سبحانه — جانبا من أهوال هذا اليوم ، ومن أحوال الناس فيه فقال : « يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه فمنهم شقى سعيد »

والشقى : صفة مشبهة من الفعل شقى ، وهو الشخص المتلبس بالشقاوة والشقاء ، ـ أى : سوء الحال ـ بسبب إيثاره الضلالة على الهداية ، والباطل على الحق . . .

والسعيد : هو الشخص المتلبس بالسعادة ، وبالأحوال الحسنة بسبب إيمانه وعمله الصالح .

والمعنى : حين يأتى هذا اليوم ؛ وهو يوم القيامة ، لاتتكلم فيه نفس بأى كلام إلا بإذن الله ـ تعالى ـ ويكون الناس فيه منقسمين إلى قسمين : قسم شقى معذب بسبب كفره ، وسوء عمله ، وتفريطه فى حقوق الله . .

وقسم سعيد منعم بسبب إيمانه ، وعمله الصالح . . .

فإن قيل : كيف نجمع بين هذه الآية التى تنفى الكلام عن كل نفس إلا بإذن الله وبين قوله ـ تعالى ـ « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها . . . »

فالجواب : أن فى يوم القيامة مواقف متعددة ، فنى بعضها يجادل الناس عن أنفسهم ، وفى بعضها يكفون عن الكلام إلا بإذن الله ، وفى بعضها يختم على أفواههم ، وتتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ...

وفى هذه الآية الكريمة إبطال لما زعمه المشركون من أن أصنامهم ستدافع عنهم ، وستشفع لهم يوم القيامة .

قال الإمام ابن كثير : قوله - تعالى - يوم يأت لاتكلم نفس إلا بإذنه .. ، أى : يوم يأتى هذا اليوم وهو يوم القيامة ، لا يتكلم أحد إلا بإذن الله - تعالى - كما قال - سبحانه - « يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا » [1]

وقال - سبحانه - « وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً » [2]

- فى الصحيحين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى حديث الشفاعة الطويل : - ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوة الرسل يومئذ : اللهم سلم سلم » [3]

ثم فصل - سبحانه - أحوال الأشقياء والسعداء فقال : « فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق »

قال الألوسى : قال الراغب : الزفير ترديد النفس حتى تنتفخ الضلوع منه مأخوذ من زفر فلان إذا حمل حملا بمشقة فتردد فيه نفسه . ومنه قيل للإماء الحاملات الماء زوافر .

والشهيق . رد النفس إلى الصدر بصعوبة وعناء .

---

(١) سورة النبأ الآية ٣٨
(٢) سورة طه الآية ١٠٨
(٣) تفسير ابن كثير حـ ٤ صـ ٢٧٩

والمراد بهما : الدلالة على شدة كربهم وغمهم ، وتشبيه حالهم بحال من استولت على قلبه الحرارة ، واستبد به الضيق ـ حتى صار فى كرب شديد[١]

والمعنى : فأما الذين كان نصيبهم الشقاء فى الآخرة ، بسبب كفرهم واقترافهم المعاصى فى الدنيا . فمصيرهم الإستقرار فى النار ، لهم فيها ضيق الأنفاس . وحرج الصدور . وشدة الكروب ما يجعلهم يفضلون الموت على ماهم فيه من هم وغم . وخص ـ سبحانه ـ من بين أحوالهم الأليمة حالة الزفير والشهيق ؛ تنفيرا من الأسباب التى توصل إلى النار . وتبشيعا لتلك الحالة التى فيها ما فيها من سوء المنظر . وتعاسة الحال . . .

ثم أكد ـ سبحانه ـ خلودهم فى النار فقال : «خالدين فيها مادامت السموات والأرض . . . . »

أى أن الأشقياء لهم فى النار العذاب الأليم . وهم ماكثون فيها مكث بقاء وخلود لا يبرحونها مـدة دوام السموات التى تظلهم . والأرض التى تقلهم فهو فى معنى قوله ـ تعالى ـ (خالدين فيها أبدا)

قال الآلوسى ماملخصه : والمقصود من هذا التعبير : التأبيد ونفى الانقطاع على منهاج قول العرب لا أفعل كذا ، مالاح كوكب ، وما أضـاء الفجر ، وما اختلف الليل والنهار . . . إلى غير ذلك من كلمات التأبيد عندهم . . .

وليس المقصود منه تعليق قرارهم فيها بدوام هذه السموات والأرض ، فإن النصوص القاطعة دالة على تأبيد قرارهم فيها .

وجوز أن يحمل ذلك على التعليق ، ويراد بالسموات والأرض ، سماوات الآخرة وأرضها ، وهما دائمتان أبدا ...) [٢]

---

(١) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٢٦

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٢٦

أما قوله — سبحانه — (إلا ما شاء ربك) فقد ذكر العلماء فى المقصود به أقوالا متعددة أوصلها بعضهم إلى ثلاثة عشر قولا من أشهرها :

أن هذا الإستثناء فى معنى الشرط ، فكأنه ـ سبحانه ـ يقول :

١ — خالدين فيها خلودا أبديا إن شاء ربك ذلك،إذ كل شىء خاضع لمشيئة ربك وإرادته ..

وعليه يكون المقصود من هذا الإستثناء وأمثاله ، إرشاد العباد إلى وجوب تفويض الأمور إليه ـ سبحانه ـ وإعلامهم بأن كل شىء خاضع لإرادته ومشيئته ، فهو الفاعل المختار الذى لا يجب عليه شىء ، ولاحق لأحد عليه (إن ربك فعال لما يريد)

وليس المقصود من هذا الإستثناء وأمثاله ، نفى خلودهم فى النار ، لأنه لا يلزم من الاستثناء المعلق على المشيئة وقوع المشيئة ، ولأنه قد أخبرنا ـ سبحانه ـ فى كتابه بخلود الكافرين خلودا أبديا فى النار .

قال ـ تعالى ـ إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا . إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا) [1]

وشبيه بهذا الاستثناء ماحكاه ـ سبحانه ـ عن نبيه شعيب ـ عليه السلام ـ فى قوله :

« قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أو لو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذبا أن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علما ..... »[2] .

---

(١) سورة النساء . الآيتان ١٦٧ ، ١٦٨

(٢) راجع تفسيرنا لسورة الأعراف ص١٢٠ .

فشعيب - عليه السلام - مع ثقته المطلقة فى أنه لن يعود هو وأتباعه إلى ملة الكفر ، نراه يفوض الأمر إلى مشيئة الله تأدبا معه - سبحانه - ...

فيقول : وما يكون لنا أن نعود فيها - أى ملة الكفر - إلا أن يشاء ربنا شيئا غير ذلك وهذا من الأدب العالى فى مخاطبة الأنبياء لخالقهم - عز وجل - .

وقد ذكر كثير من المفسرين هذا القول ضمن الأقوال فى معنى الآية ، وبعضهم اقتصر عليه ولم يذكر سواه ، ومن هذا البعض صاحب المنار ، وصاحب محاسن التأويل ...

أما صاحب المنار فقد قال : قوله « إلا ما شاء ربك » أى : أن هذا الخلود الدائم هو المعد لهم فى الآخرة .... إلا ماشاء ربك من تغيير فى هذا النظام فى طور آخر ، فهو إنما وضع بمشيئته ، وسيبقى فى قبضة مشيئته ، وقد عهد مثل هذا الاستثناء فى سياق الأحكام القطعية للدلالة على تقييد تأبيدها بمشيئة الله - تعالى - فقط ، لا لإفادة عدم عمومها .... »[1] .

وأما صاحب محاسن التأويل فقد قال : فإن قلت : مامعنى الاستثناء بالمشيئة ، وقد ثبت خلود أهل الدارين فيهما من غير استثناء ؟

فالجواب : أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل فى أسلوب القرآن ، للدلالة على الثبوت والاستمرار .

والنكتة فى الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الدائمة ، إنما كانت كذلك بمشيئة الله - تعالى - لا بطبيعتها فى نفسها ، ولو شاء - تعالى - أن يغيرها لفعل .

وابن كثير قد أشار إلى ذلك بقوله : « يعنى أن دوامهم فيها ليس أمر

---

(١) تفسير المنار حـ١٢ ص١٦٠ .

واجبا بذاته ، بل هو موكول إلى مشيئته - تعالى - »[١] .

٢ - أن الاستثناء هنا خاص بالعصاة من المؤمنين .

ومن العلماء الذين رجحوا هذا القول الإمامان : ابن جرير وابن كثير .

أما ابن جرير فقد قال ماملخصه بعد أن سرد الأقوال فى ذلك :

« وأولى الأقوال فى تأويل هذه الآية بالصواب ، القول الذى ذكرناه عن الضحاك وقتادة من أن ذلك استثناء فى أهل التوحيد من أهل الكبائر ، أنه يدخلهم النار خالدين فيها أبدا ، إلا ماشاء تركهم فيها أقل من ذلك ، ثم يخرجهم فيدخلهم الجنة - أى العصاة من المؤمنين - .... »[٢] .

وأما ابن كثير فقد وضح ما اختاره ابن جرير ورجحه فقال ماملخصه :

وقد اختلف المفسرون فى المراد من هذا الاستثناء على أقوال كثيرة ... نقل كثيرا منها الإمام ابن جرير ، واختار : أن الاستثناء عائد على العصاة من أهل التوحيد ، ممن يخرجهم الله من النار بشفاعة الشافعين ، من الملائكة والنبيين والمؤمنين ، حين يشفعون فى أصحاب الكبائر ، ثم تأتى رحمة أرحم الراحمين ، فتخرج من النار من لم يعمل خيرا قط ، وقال يوما من الدهر : لا إله إلا الله ، كما وردت بذلك الأخبار الصحيحة المستفيضة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ولا يبقى بعد ذلك فى النار إلا من وجب عليه الخلود فيها ، ولا محيد له عنها ، وهذا الذى عليه كثير من العلماء قديما وحديثا فى تفسير هذه الآية الكريمة »[٣] .

وقد ذكر الشيخ الشوكانى هذا القول ضمن أحد عشر قولا فقال ما ملخصه :

---

(١) تفسير القاسمى حـ ٩ ص ٣٤٨٦ .

(٢) تفسير ابن جرير حـ ١٢ ص٧٠ .

(٣) تفسير ابن كثير حـ ٤ ص٢٨١

وقوله «إلا ماشاء ربك» : قد اختلف أهل العلم فى هذا الاستثناء على أقوال منها :

(أ) أنه من قوله « ففى النار » كأنه قال : إلا ماشاء ربك من تأخير قوم عن ذلك ...

(ب) أن الاستثناء إنما هو للعصاة من الموحدين، فإنهم يخرجون بعد مدة من النار ، وعلى هذا يكون قوله « فأما الذين شقوا » عاما فى الكفرة والعصاة، ويكون الاستثناء من خالدين ، وتكون «ما» بمعنى «من» ، وقد ثبت بالأحاديث المتواترة تواترا يفيد العلم الضرورى بأنه يخرج من النار أهل التوحيد ، فكان ذلك مخصصا لكل عموم .

(ج) أن الاستثناء من الزفير والشهيق . أى لهم فيها زفير وشهيق « إلا ماشاء ربك » من أنواع العذاب غير الزفير والشهيق ....»[1] .

ويبدو لنا أن الرأى الأول أرجح الآراء ، ويشهد لهذا قوله - تعالى - بعد ذلك :

« إن ربك فعال لما يريد » أى فهو إن شاء غير ذلك فعله ، وإن شاء ذلك فعله ، ماشاء من الأفعال كان وما لم يشأه لم يكن .

وجاء - سبحانه - بصيغة المبالغة ، للاشارة إلى أنه - سبحانه - لا يتعاصى عليه فعل من الأفعال بأى وجه من الوجوه .

ثم بين - سبحانه - حسن عاقبة السعداء فقال : « وأما الذين سعدوا » أى فى الآخرة بسبب إيمانهم وتقواهم فى الدنيا ، « ففى الجنة خالدين فيها إلا ماشاء ربك عطاء غير مجذوذ » .

أى : عطاء منه - سبحانه - لهم غير مقطوع عنهم . يقال : جذ الشىء يجذه

---

(١) راجع تفسير الشوكانى ج ٢ ص ٥٢٥ .

جذا ، أي : كسره وقطعه ، ومنه الجذاذ - بضم الجيم - لما تكسر من
كما في قوله - تعالى - حكاية عما فعله إبراهيم - عليه السلام - بالأصنام « .
جذاذا إلا كبيرا لهم » . . .

وبذلك نرى أن هذه الآيات قد فصلت أحوال السعداء والأش
تفصيلا يدعو العقلاء إلى أن يسلكوا طريق السعداء ، وأن يتجنبوا ط
الأشقياء .

* * *

ثم ساق - سبحانه - بعد ذلك من الآيات ما فيه تسلية للنبي - صلى الله
وسلم - عما أصابه من قومه من أذى ، وما فيه تثبيت لقلوب المؤمنين ، و
إرشاد لهم إلى ما يقربهم من الخير ، ويبعدهم عن الشر فقال - تعالى - :

« فلا تَكُ فى مِرْيَةٍ مما يعبدُ هؤلاء ، ما يعبدونَ إلا كما يعبدُ
مِنْ قبلُ ، وإنّا لمُوفُّوهُم نصيبَهم غيرَ منقوص (١٠٩) ولقد آتينا م
الكتابَ فاختُلِفَ فيه ولولاَ كلمةٌ سبقتْ مِنْ ربِّك لقُضِيَ بين
وإنَّهُمْ لفى شَكٍّ منهُ مُرِيبٌ (١١٠) وإنَّ كلاًّ لمَّا ليُوفينَّهم ربُّك أع
إنّه بمَا يعملُونَ خبيرٌ (١١١) فاستقِمْ كما أُمِرتَ ومَن تابَ معك
تطغَوْا ، إنّه بمـا تعملونَ بصيرٌ (١١٢) ولا تَركَنُوا إلى الذينَ
فتمسّـكُم النارُ وما لـكُم من دونِ اللهِ من أولياء ثم لا تنصرون (
وأقِمِ الصلاةَ طرَفىِ النهارِ وزُلَفاً من الليلِ إنّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السي
ذلك ذِكْرَى للذاكرينَ (١١٤) واصبر فإن اللهَ لا يُضيـعُ
المحسنينَ (١١٥) » .

قال الفخر الرازي : اعلم أنه - تعالى - لما شرح أقاصيص عبدة الأ

ثم أتبعه بأحوال الأشقياء وأحوال السعداء شرح للرسول صلى الله عليه وسلم أحوال الكفار من قومه فقال : « فلا تك فى مرية . . . » والمعنى : فلا تكن، إلا أنه حذف النون لكثرة الاستعمال . ولأن حرف النون إذا وقع على طرف الكلام ، لم يبق عند التلفظ ، إلا مجرد الغنة ، فلا جرم أسقطوه . . »[1]

والمرية - بكسر الميم - الشك المتفرع عن محاجة ومجادلة بين المتخاصمين.

والمعنى : لقد قصصنا عليك أيها الرسول الكريم الكثير من أخبار السابقين وبينا لك مصير السعداء والأشقياء . . . وما دام الأمر كذلك ، فلا تك فى شك من أن عبادة هؤلاء المشركين لأصنامهم إنما هى تقليد لما كان يعبده آباؤهم من قبل ، وهذه العبادة لغير الله - تعالى - ستؤدى بالجميع إلى سوء العاقبة وإلى العذاب الأليم .

والخطاب وإن كان للرسول - صلى الله عليه وسلم - على سبيل التسلية والتثبيت ، إلا أن التحذير فيه يندرج تحت كل من يصلح للخطاب .

وهذا الأسلوب كثيرا ما يكون أوقع فى النفس ، وأشد تأثيرا فى القلب ، لأنه يشعر المخاطب بأن ما بينه الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - إنما هو من قبيل القضايا الموضوعية التى لا تحتاج إلى جدال مع أحد ، ومن جادل فيها فإنما يجادل فى الحق الواضح بدافع الحسد والعناد ، لأن الواقع يشهد بصحة ما بينه الله - تعالى - لرسوله - صلى الله عليه وسلم - .

وجملة « ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل » مستأنفة ، لبيان أن الخلف قد ساروا فى الجهالة والجحود على طريقة السلف .

وعبر عن عبادة الآباء بالمضارع ، مع أنها كانت فى الماضى بقرينة « من قبل » . للدلالة على استمرارهم على هذه العبادة الباطلة حتى موتهم ، وأن

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٦٨ .

أبناؤهم لم ينقطعوا عنها ، بل واصلوا السير على طريق آبائهم الضالين تفكر أو تدبر .

والمضاف إليه فى قوله « من قبل » محذوف ، والتقدير : من قبلهم .

وقوله « وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص » تذييل قصد به تأكيد ا الذى سينزل بهم فى الآخرة بسبب عبادتهم لغير الله .

وموفوهم من التوفية ، وهى إعطاء الشىء كاملا بدون نقص .

والمراد بالنصيب هنا: المقدار المعد لهم من العذاب، وسماه نصيبا على التهكم بهم.

أى : وإنا لمعطو هؤلاء الذين نهجوا منهج آبائهم فى عبادة غير الله، نه وحظهم من عذاب الآخرة كاملا بدون إنقاص شىء منه ، كما ساروا ا طريقة سلفهم فى الضلال دون أن يغيروا شيئا منها ...

ومنهم من جعل المراد بالنصيب هنا : ما يشمل الجزاء على الأعمال الد والأخروية .

قال صاحب المنار : أى . وإنا لمعطوهم نصيبهم من جزاء أعمالهم فى والآخرة وافيا تاما لا ينقص منه شىء ، كما وفينا آباءهم الأولين من فإنه ما من خير يعمله احد منهم كبر الوالدين وصلة الأرحام ... إلا و الله جزاءهم عليه فى الدنيا بسعة الرزق ، وكشف الضر جزاء تاما ، لا ي شىء يجزون عليه فى الآخرة .... »[1]

ويبدو لنا أن الرأى الأول أقرب إلى الصواب ، لأن سياق الكريمة يؤيده إذ الكلام فيها فى شأن جزاء الذين ساروا على نهج آبا الضلال ، وليس فى بيان الجزاء العام فى الدنيا والآخرة .

---

(١) تفسير المنار ج ١٢ ص ١٦٢ .

ثم بين - سبحانه - أن اختلاف الناس في الحق موجود قبل بعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ... »

أي : كما اختلف قومك - أيها الرسول الكريم - في شأن القرآن الكريم فنهم من وصفه بأنه أساطير الأولين ، فقد اختلف قوم موسى من قبلك في شأن التوراة التي أنزلها الله على نبيهم موسى لهدايتهم ، إذ منهم من آمن بها ومنهم من كفر ...

ومادام الأمر كذلك، فلا تحزن - أيها الرسول الكريم - لاختلاف قومك في شأن القرآن الكريم ، فإن هذا الاختلاف شأن الناس في كل زمان ومكان والمصيبة إذا عمت خفت .

فالجملة الكريمة تسلية للرسول - صلى الله عليه وسلم - عما أصابه من مشركي قومه .

وجاء الفعل « اختلف » بصيغة المبنى للمجهول ، لأن ذكر فاعل الاختلاف لا يتعلق به غرض، وإنما الذي يتعلق به الغرض هو مانجم عن هذا الاختلاف من كفر وضلال .

ثم بين - سبحانه - جانبا من مظاهر فضله ورحمته بخلقه فقال : « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم ... »

والمرد بالكلمة التي سبقت : تأخير العذاب عنهم إلى يوم القيامة ، وعدم إهلاكهم بعذاب الاستئصال في الدنيا .

قال الشوكاني : قوله - سبحانه - « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم .. » أي : لولا أن الله - تعالى - قد حكم بتأخير عذابهم إلى يوم القيامة لما علم في ذلك من الصلاح ، لقضي بينهم ، أي : بين قومك ، أو بين قوم موسى ، فيما كانوا فيه مختلفين ، فأثيب المحق وعذب المبطل ، أو الكلمة : هي أن رحمته سبحانه سبقت غضبه ، فأمهلهم ولم يعاجلهم لذلك .

وقيل إن الكلمة هى أنهم لا يعذبون بعذاب الاستئصال . وهذا من ج
التسلية له ـ صلى الله عليه وسلم ـ »(١) .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله : « وإنهم لفى شك منه مريب
والمريب اسم فاعل من أراب . يقال أربته فأنا أريبه إذا فعلت به ف
يوجب لديه الريبة والحيرة .

أى : وإن هؤلاء المختلفين فى شأن الكتاب لفى شك منه ، وهذا الش
قد أوقعهم فى الريبة والحيرة والتخبط والاضطراب .

وهذا شأن المعرضين عن الحق، لايجدون مجالا لنقده وإنكاره ، فيحد
عنادهم وجحودهم على التشكيك فيـــه ، وتأويله تأويلا سقيما بدعو
الريبة والقلق .

وبعض المفسرين يرى عودة الضمير فى قوله « وإنهم » إلى قوم موس
وفى قوله « منه » إلى كتابهم التوراة .

وبعضهم يرى عودة الضمير الأول إلى قوم النبى ـ صلى الله عليه وس
والثانى إلى القرآن الكريم .

والذى يبدو لنا أن الرأى الأول أظهر فى معنى الآية ، لأن الكلا
موسى ـ عليه السلام وقومه الذين اختلفوا فى شأن كتابهم التوراة اخ
كبيرا ، وعود الضمير إلى المتكلم عنه أولى بالقبول .

وهذا لايمنع أن بعض المكذبين للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ك
فى شك من القرآن ، أوقعهم هذا الشك فى الريبة والحيرة .

فتكون الجملة الكريمة من باب التسلية للرسول ـ صلى الله عليه وس
عما قاله بعض المشركين فى شأن القرآن الكريم .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٢ ص ٥٢٩

ثم بين ـ سبحانه ـ أن هؤلاء المختلفين فى شأن الكتاب ، الشاكين فى صدقه ، سوف يجمعهم الله ـ تعالى ـ مع غيرهم يوم القيامة للجزاء والحساب على أعمالهم فقال ـ تعالى ـ « وإن كلا لما ليوفيهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبـــير » .

وقد وردت فى هذه الآية الكريمة عدة قراءات متواترة[1] منها : قراءة ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم بتشديد « إن ولمـا » ، وقد قيل فى تخريجهـــا :

إن لفظ « كلا » اسم إن ، والتنوين فيه عوض عن المضاف إليه ، واللام فى « لمـا » هى الداخلة فى خبر « إن » ، وما بعد اللام هو حرف « من » الذى هو من حروف الجر ، و « ما » موصولة أو نكرة موصوفة والمراد بها من يعقل . فيكون تقدير الكلام : وإن كلا « لمن ما » فقلبت النون فيها للإدغام فاجتمع ثلاث ميمات ، فحذفت واحدة منها للتخفيف ، فصارت « لمـا » ، والجار والمجرور خبر « إن » ، واللام فى « ليوفينهم » جواب قسم مضمر ، والجملة صلة أو صفة « لمـا » .

والتقدير : وإن كلا من أولئك المختلفين وغيرهم لمن خلق الله الذين هم بحق ربك ليوفينهم ـ سبحانه ـ جزاء أعمالهم دون أن يفلت منهم أحد ، إنه ـ سبحانه ـ لا يخفى عليه شىء منها .

وفى الآية الكريمة توكيدات متنوعة ، حتى لا يشك فى نزول العذاب بالظالمين مهما تأجل ، وحتى لا يشك أحد ـ أيضا ـ فى أن ما عليه المشركون هو الباطل الذى لا يعرفه الحق ، وأنه الكفر الذى تلقاه الخلف عن السلف .

---

(١) لمعرفة هذه القراءات راجع حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٤٢٦ وتفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٣٣ .

وكان مقتضى حال الدعوة الإسلامية فى تلك الفترة التى نزلت فيها هذه السورة — وهى فترة ما بعد حادث الإسراء والمعراج وقبل الهجرة — يستلزم هذه التأكيدات تثبيتا لقلوب المؤمنين، وتوهينا للشرك والمشركين .

قا الإمام الفخر الرازى عند تفسيره لهذه الآية ما ملخصه : سمعت بعض الأفاضل قال : إنه — تعالى — لما أخبر عن توفية الأجزية على المستحقين فى هذه الآية ، ذكر فيها سبعة أنواع من التأكيدات :

أولا : كلمة « إن » وهى للتأكيد ، وثانيها كلمة « كل » وهى أيضا للتأكيد، وثالثها : اللام الداخلة على خبر « إن » وهى تفيد التأكيد — أيضا — ، ورابعها : حرف « ما » إذا جعلناه على قول الفراء موصولا ، وخامسها : القسم المضمر فإن تقدير الكلام : وإن جميعهم والله ليوفينهم ؛ وسادسها : اللام الثانية الداخلة على جواب القسم ، وسابعها : النون المؤكدة فى قوله « ليوفينهم » .

فجميع هذه المؤكدات السبعة تدل على أن أمر القيامة والحساب والجزاء حق .... »(١)

ثم أمر الله — تعالى — رسوله — صلى الله عليه وسلم — وأتباعه بالتزام الصراط المستقيم فقال — سبحانه — : « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير » .

والفاء للتفريع على ماتقدم من الأوامر والنواهى .

والاستقامة — كما يقول القرطبي — هى الاستمرار فى جهة واحدة من غير أخذ فى جهة اليمين والشمال ... »(٢) .

والطغيان : مجاوزة الحد . ومنه طغا الماء . أى ارتفع وتجاوز الحدود المناسبة .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١٨ ص ٧٠

(٢) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٣٦ .

والمعنى: لقد علمت - أيها الرسول الكريم - حال السعداء وحال الأشقياء، وعرفت أن كل مكلف سيوفى جزاء أعماله ....

وما دام الأمر كذلك فالزم أنت ومن معك من المؤمنين طريق الاستقامة على الحق، وداوموا على ذلك كما أمركم الله، بدون إفراط أو تفريط، واحذروا أن تتجاوزوا حدود الاعتدال فى كل أقوالكم وأعمالكم.

ووجه - سبحانه - الأمر بالاستقامة إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - تنويها بشأنه، وليبنى عليه قوله - «كما أمرت»، فيشير بذلك إلى أنه - عليه الصلاة والسلام - هو وحده المتلقى للأوامر الشرعية من الله - تعالى - .

وقد جمع قوله - تعالى - «فاستقم كما أمرت» أصول الإصلاح الدينى وفروعه، كما جمع قوله - تعالى - «ولا تطغوا» أصول النهى عن المفاسد وفروعه، فكانت الآية الكريمة بذلك جامعة لإقامة المصالح ولدرء المفاسد.

قال الإمام ابن كثير ما ملخصه: يأمر الله - تعالى - رسوله وعباده المؤمنين فى هذه الآية بالثبات والدوام على الاستقامة، لأن ذلك من العون على النصر على الأعداء، وينهاهم عن الطغيان وهو البغى، لأنه مصرعته حتى ولو كان على مشرك».

وقال الآلوسى: والاستقامة كلمة جامعة لكل مايتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق

أخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الحسن أنه قال، لما نزلت هذه الآية قال - صلى الله عليه وسلم - شمروا شمروا، وما رؤى بعد ضاحكا».

وعن ابن عباس قال: ما نزلت على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - آية أشد من هذه الآية ولا أشق»[1].

وفى صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفى قال: قلت يارسول الله،

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ١٢ ص ١٣٦.

قل لى فى الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا بعدك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم »[1] .

وجملة « إنه بما تعملون بصير » تعليل للأمر بالإستقامة وللنهى عن الطغيان.

أى : الزموا المنهج القويم ، وابتعدوا عن الطغيان ، لأنه – سبحانه – مطلع على أعمالكم اطلاع المبصر ، العليم بظواهرها وبواطنها ، وسيجازيكم يوم القيامة عليها بما تستحقون من ثواب أو عقاب .

ثم نهى – سبحانه – بعد ذلك عن الميل إلى الظالمين فقال : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون» .

والركون إلى الشيء : الميل إليه . يقال ركن فلان إلى فلان ، إذا مال إليه بقلبه ، واعتمد عليه فى قضاء مصالحه .

والمراد بالذين ظلموا هنا : ما يتناول المشركين وغيرهم من الظالمين الذين يعتدون على حقوق الغير ، ويستحلون من محارم الله ...

والمعنى : واحذروا – أيها المؤمنون – أن تميلوا إلى الظالمين ، أو تسكنوا إليهم ، لأن ذلك يؤدى إلى تقوية جانبهم . وإضعاف جانب الحق والعدل ..

قال بعض العلماء : ويستثنى من ذلك للضرورة صحبة الظالم على التقية مع حرمة الميل القلبى إليه .

وقوله « فتمسكم النار » أى فتصيبكم النار بسبب ميلكم إليهم ، والاعتماد عليهم ، والرضا بأفعالهم .

وقوله « وما لكم من دون الله من أولياء » فى موضع الحال من ضمير « تمسكم » .

أى : والحال أنه ليس لكم من غير الله من نصراء ينصرونكم من العذاب

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٩ ص ١٠٧ .

النازل بكم ، بسبب ركوتكم إلى الذين ظلموا ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم ...

وثم فى قوله « ثم لا تنصرون » للتراخى الرتبى . أى ثم لا تجدون بعد ذلك من ينصركم بأى حال من الأحوال ، لأن الظالمين مالهم من أنصار .

قال بعض العلماء : الآيه أبلغ مايتصور فى النهى عن الظلم، والتهديد عليه ، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى الذين ظلموا فكيف يكون حال من ينغمس فى حمأته ؟ ! !

ثم قال : وقد وسع العلماء فى ذلك وشددوا ، والحق أن الحالات تختلف، والأعمال بالنيات . والتفصيل أولى .

فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو للاستعانة على إحقاق الحق ، أو جلب الخير . . .

فلا حرج فى ذلك . وإن كانت لإيناسهم وإقرارهم على ظلمهم فلا . .»[1]

ثم أرشد ـ سبحانه ـ عباده المؤمنين إلى ما يعينهم على الاستقامة وعلى عدم الركون إلى الظالمين ، فقال : « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين . . .

والمراد بإقامتها الإتيان بها فى أوقاتها كاملة الأركان والخشوع والإخلاص لله رب العالمين .

والمراد بالصلاة هنا : الصلاة المفروضة .

قال القرطبى : لم يختلف أحد من أهل التأويل فى أن الصلاة فى هذه الآية ، المراد بها الصلوات المفروضة . وخصها بالذكر لأنها ثانية أركان الإسلام ، وإليها يفزع فى النوائب ، وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — إذا

---

(١) تفسير القاسمى - بتصرف يسير - جـ ٩ ص ٣٤٩١ .

حزبه أمر فزع إلى الصلاة »[١] .

وطرفي النهار : أي أول النهار وآخره ، لأن طرف الشيء منتهاه من أوله أو من آخره .

والنهار : يتناول مابين مطلع الفجر إلى غروب الشمس . سمى بذلك لأن الضياء ينهر فيه أى يبرز النهر .

والصلاة التي تكون في هذين الوقتين ، تشمل صلاة الغداة وهى صلاة الصبح ، وصلاة العشي وهى صلاة الظهر والعصر ، لأن لفظ العشى يكون من الزوال إلى الغروب .

وقيل الصلاة التي تكون في هذين الوقتين هى صلاة الصبح والمغرب .

وقوله « وزلفا من الليل » معطوف على طرفي النهار .

والزلف جمع زلفة ـ كغرف وغرفة ـ والمراد بها الساعات القريبة من آخر النهار ، إذ الإزلاف معناه القرب ومنه قوله ـ تعالى ـ « وأزلفت الجنة للمتقين ... » أى : قربت منهم . وتقول أزلفنى فلان منه : أى قربنى ...

فمعنى « وزلفا من الليل » طائفة من أوله . وصلاة الزلف تطلق على صلاتى المغرب والعشاء قال ابن كثير ماملخصه : وقوله « وزلفا من الليل » يعنى صلاة المغرب والعشاء . قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « هما زلفتا الليل : المغرب والعشاء » .

ويحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء ، فإنه إنما كان يجب من الصلاة صلاتان : صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها ، وفى أثناء الليل قيام عليه وعلى الأمة ، ثم نسخ فى حق الأمة ، وثبت وجوبه عليه ، ثم نسخ عنه أيضا فى قول »[٢] .

---

(١) تفسير القرطبي حـ٩ صـ١٠٩ .

(٢) تفسير ابن كثير حـ ٤ صـ ٢٨٤ .

وجملة « إن الحسنات يذهبن السيئات » مسوقة مساق التعليل للأمر بإقامة الصلاة ، وأكدت بحرف « إن » للاهتمام وتحقيق الخبر ، والحسنات صفة لموصوف محذوف ، وكذلك السيئات .

والمعنى : إن الأعمال الحسنة - كالصلاة والزكاة والصيام والحج ، والاستغفار .... - يذهبن الأعمال السيئات ، أي يذهبن المؤاخذة عليها ، ويذهبن الاتجاه إليها ببركة المواظبة على الأعمال الحسنة .

والمراد بالسيئات هنا صغائر الذنوب ، لقوله - تعالى - « إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما »[١] ولقوله - تعالى - « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة .... »[٢] ، ولأن كبائر الذنوب لا تكفرها إلا التوبة الصادقة .

وقوله « ذلك ذكرى للذاكرين » أي : ذلك الذي أمرناك به من وجوب إقامة الصلاة ، ومن الاستقامة على أمر الله ... فيه التذكرة النافعة ، لمن كان شأنه التذكر والاعتبار ، لا الإعراض والعناد .

وهذه الآية الكريمة من الآيات التي قال عنها بعض المفسرين بأنها مدنية ، وقد ذكرنا في التمهيد بين يدي السورة ، أن سورة هود نرجح أنها كلها مكية ، وليس فيها آيات مدنية .

ومما يؤيد أن هذه الآية مكية أنها مسوقة مع ماسبقها من آيات لتسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - ولإرشادة واتباعه إلى مايعينهم على الاستقامة ، وعدم الركون إلى الظالمين .

---

(١) سورة النساء الآية ٣١ .

(٢) سورة النجم الآية ٣٢ .

ولأن بعض الروايات التى وردت فى شأنها ، لم تذكر أنها نزلت فى المدينة ، بل ذكرت أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تلاها على السائل ، ومن هذه الروايات مارواه الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير ـ وهذا لفظه ـ عن ابن مسعود قال : جاء رجل إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله إنى وجدت امرأة فى بستان ، ففعلت بها كل شىء ، غير أنى لم أجامعها ، فافعل بى ماشئت . فلم يقل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئا ، فذهب الرجل ، فقال عمر : لقد ستر الله عليه لوستر على نفسه . فأتبعه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصره ثم قال : ردوه على فردوه عليه فقرأ عليه : « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ... الآية » فقال معاذ ـ وفى رواية عمر ـ يارسول الله ، أله وحده أم للناس كافة ؟ فقال : بل للناس كافة »[1] .

والروايات التى ورد فيها فأنزل عليه هذه الآية ، فى الإمكان أن تؤول بأن المراد أنزل عليه شمول عموم الحسنات والسيئات لقضية السائل ، ولجميع مايماثلها من إصابة الذنوب سوى الكبائر .

هذا ، ثم ختم ـ سبحانه ـ هذه التوجيهات الحكيمة بقوله « واصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين » .

أى : واصبر أيها الرسول الكريم أنت ومن معك من المؤمنين على مشاق التكاليف التى كلفكم الله ـ تعالى ـ بها ، فإنه ـ سبحانه ـ لايضيع أجر من أحسن عملا ، بل موفى الصابرين أجرهم بغير حساب .

قال الآلوسى : ومن البلاغة القرآنية أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإن كانت عامة فى المعنى ، والمناهى جمعت للأمة ، للدلالة على عظم منزلة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند ربه[2] .

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ٤ صـ٢٨٦ .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٢ صـ ١٤٣ .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآيات الدالة على سنن الله - تعالى - فى خلقه ، وعلى الحكم التى من أجلها ساق الله - تعالى - تلك القصص فى كتابه فقال - تعالى - :

« فلولاَ كانَ مِنَ القرونِ مِنْ قبلِكم أولوا بقيةٍ ينهونَ عن الفسادِ فى الأرضِ إلا قليلاً ممّنْ أنجينا منهم ، واتبعَ الذينَ ظلمُوا ما أُترِفُوا فيه وكانُوا مجرمينَ (١١٦) وما كانَ ربُّكَ ليهلكَ القُرى بظُلمٍ وأهلُها مصلحونَ (١١٧) ولو شاء ربُّك لجعَل الناسَ أمةً واحدةً ، ولا يزالونَ مختلفينَ (١١٨) إلا من رحمَ ربُّكَ ولذلك خلقَهم ، وتمتْ كلمةُ ربِّكَ لأملأنّ جهنّمَ من الجِنَّةِ والناسِ أجمعينَ (١١٩) وكلاًّ نقصُّ عليكَ مِنْ أنباء الرسُلِ ما نثبتُ به فؤَادَكَ ، وجاءكَ فى هذه الحقُّ وموعظةٌ وذكرى للمؤمنين (١٢٠) وقل للذينَ لا يؤمنونَ اعملُوا على مكانتِكُم إنا عاملونَ (١٢١) وانتظرُوا إنّا منتظِرون (١٢٢) ولله غيبُ السمواتِ والأرضِ وإليه يُرْجَع الأمرُ كلُّه ، فاعبدْهُ وتوكّلْ عليه ، وما ربُّك بغافلٍ عما تعملونَ (١٢٣) » .

وقوله - تعالى - فلو كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم . . . . ، إرشاد إلى أن الأمم إذا خلت من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، حلت بها المصائب والنكبات . .

ولولا : حرف تحضيض بمعنى هلا . والمقصود بالتحضيض هنا تحذير المعاصرين للنبى - صلى الله عليه وسلم - ومن سيأتى بعدهم من الوقوع فيما وقع فيه أهل القرون الماضية من ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى لا يصيب اللاحقين ما أصاب السابقين .

والقرون : جمع قرن . والمراد به الأمة من الناس الذين يجمعهم زمان واحد ، والراجح أن القرن مائة عام .

و « أولوا بقية » أي : أصحاب مناقب حميدة ، وخصال كريمة ، وعقول راجحة . . .

وأصل البقية : ما يصطفيه الإنسان لنفسه من أشياء نفيسة يدخرها لينتفع بها ، ومنه قولهم : فلان من بقية القوم . أي : من خيارهم وأهل الفضل فيهم . قال الشاعر :

إن تدنبوا ثم تأتيني بقيتكم   فما على بذنب منكم فوت

وفى الأمثال : فى الزوايا خبايا ، وفى الرجال بقايا

والفساد فى الأرض : يشمل ما يكون فيها من المعاصى واختلال الأحوال وارتكاب المنكرات والبعد عن الصراط المستقيم .

والمعنى : فهلا وجد من أولئك الأقوام الذين كانوا من قبلكم ، رجال أصحاب خصال كريمة ، وعقول سليمة ، تجعلهم هذه الخصال وتلك العقول ينهون أنفسهم وغيرهم عن الإفساد فى الأرض ، وعن انتهاك الحرمات ؟

كلا إنهم لم يكن فيهم هؤلاء الرجال الذين ينهون عن الفساد فى الأرض ، إلا عددا قليلا منهم أنجيناهم بسبب إيمانهم ونهيهم عن الفساد فى الأرض .

وفى هذا من التوبيخ لأهل مكة ولكل من تقاعس عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مافيه ، لأن الله - تعالى - بين أن عذاب الاستئصال الذى حل بالظالمين السابقين ، كان من أسبابه عدم نهيهم عن الفساد فى الأرض .

قال الشوكانى : والاستثناء فى قوله « إلا قليلا . . » منقطع . أى : لكن قليلا ممن أنجينا منهم كانوا ينهون عن الفساد فى الأرض . وقيل : هو متصل ، لأن فى حرف التحضيض معنى النفى ، فكأنه قال : ما كان فى القرون أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ، إلا قليلا ممن أنجينا منهم . ومن فى قوله

« من أنجينا منهم » بيانيه ، لأنه لم ينج إلا الناهون »(١) .

وقال ابن كثير : ولهذا أمر الله ـ تعالى ـ هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأولئكهم المفلحون . وفى الحديث : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك الله أن يعمهم بعقاب من عنده ، ولهذا قال : فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض . . . »(٢)

وقوله : « واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه . . . . » إشارة إلى أن هؤلاء القاعدين عن النهى عن الإفساد فى الأرض ، قد استمروا على فجورهم وفسقهم دون أن يلتفتوا إلى خصال الخير ، وإلى سبيل الصلاح .

وأترفوا من الترف ومعناه التقلب فى نعم الله — تعالى — مع ترك شكره — سبحانه — عليها .

والمترف : هو الشخص الذى أبطرته النعمة ، فانغمس فى الشهوات والمعاصى ، وأعرض عن الأعمال الصالحة . .

والجملة الكريمة معطوفة على كلام مقدر يقتضيه الكلام ، والمعنى : أن هؤلاء الذين لم يكن فيهم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا من استثنى ، قد استمروا فى طغيانهم ، واتبعوا ما أنعموا فيه من الثروة والعيش الهنىء والشهوات العاجلة ، فكفروا النعمة ، واستكبروا وفسقوا عن أمر ربهم ، وكانوا قوما مجرمين ، أى مصرين على ارتكاب الجرائم والمنكرات ، فحق عليهم العقاب الذى يستحقونه بسبب هذه السيئات .

ثم بين — سبحانه — أن رحمته بعباده تقتضى عدم ظلمه لهم فقال : « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

---

(١) تفسير فتح القدير للشوكانى ج ٢ ص ٥٢٤

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩٠

والمراد بالظلم هنا مايشمل الإشراك بالله - تعالى - وغيره من الوقوع في المعاصي والمنكرات .

والباء في « بظلم » للملابسة ، وتنوين فيه الإشعار بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم يتنزه الله - تعالى - عنه على أبلغ وجه ، وإن كانت أفعاله - عز وجل - لا ظلم فيها أيا كانت هذه الأفعال . والجار المجرور حال من ربك .

والمعنى : وما كان من شأن ربك - أيها الرسول الكريم - أن يهلك أهل قرية من القرى إهلاكا متلبسا بظلم منه لها ، والحال أن أهلها قوم مصلحون، لأن ذلك الإهلاك مع تلك الحال يتنافى مع ما كتبه على نفسه من الرحمة والعدل .

قال - تعالى - « كتب ربكم على نفسه الرحمة ... » وقال - تعالى - « ولا يظلم ربك أحدا » .

وقال - تعالى - « وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون » .

ومنهم من فسر الظلم هنا بالشرك ، وجعل الباء للسببية ، فيكون المعنى : ليس من شأن ربك أن يهلك أهل قرية من القرى بسبب كفرهم وحده ، مع صلاحهم في تعاطي الحقوق فيما بينهم ، وإنما يهلكهم عندما يضمون إلى الكفر الإفساد في الأرض كما أهلك قوم شعيب لشركهم وإنقاصهم المكيال والميزان.

وقد ساق ابن جرير - رحمه الله - القولين دون أن يرجح بينهما فقال : القول في تأويل قوله - تعالى - « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » .

يقول - تعالى - ذكره : وما كان ربك يامحمد ليهلك القرى التي أهلكها والتي قص عليك نبأها ظلما وأهلها مصلحون في أعمالهم غير مسيئين ، فيكون إهلاكه إياهم مع إصلاحهم في أعمالهم وطاعتهم ربهم ظلما ، ولكنه أهلكها بكفر أهلها بالله ، وتماديهم في غيهم ....

وقد قيل معنى ذلك : لم يكن ليهلكهم بشركهم بالله ، وذلك قوله بظلم يعني

بشرك ، وأهلها مصلحون فيما بينهم لا يتظالمون ، ولكنهم يتعاطون الحق بينهم وإن كانوا مشركين ، وإنما يهلكهم إذا تظالموا »[1] .

والذي نراه أن القول الأول أقرب إلى الصواب ، لأن حمل الظلم هنا على الشرك تخصيص بدون مخصص، حيث لم يرد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حديث صحيح يخصصه بذلك ، فوجب حمل الظلم على معناه الحقيقي الذي يتناول الشرك وغيره .

ثم أخبر - سبحانه - بأن قدرته لا يعجزها شيء فقال : ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » .

والأمة : القوم المجتمعون على أمر واحد ؛ يقتدى فيه بعضهم ببعض ، وهذا اللفظ مأخوذ من « أم » بمعنى قصد ، لأن كل واحد من أفراد القوم يؤم المجموع ويقصده في مختلف شئونه .

ولو شرطية امتناعية ، ومفعول فعل المشيئة محذوف والتقدير :

ولو شاء ربك - أيها الرسول الكريم الحريص على إيمان قومه - أن يجعل الناس جميعا أمة واحدة مجتمعة على الدين الحق لجعلهم ، ولكنه - سبحانه - لم يشأ ذلك ، ليتميز الخبيث من الطيب وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - « ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ... »

وقوله - سبحانه - « ولو شاء ربك لجمعهم على الهدى ... »

وقوله « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، تأكيد لما اقتضته سنته من اختلاف الناس .

أي : ولا يزالون ما بقيت الدنيا مختلفين في شأن الدين الحق ، فمنهم من دخل فيه وآمن به ، ومنهم من أعرض عنه ، إلا الذين رحمهم ربك منهم بهدايتهم إلى الصراط المستقيم من أول الأمر ، فإنهم لم يختلفوا ، بل اتفقوا على الإيمان بالدين الحق فعصمهم الله - تعالى - من الاختلاف المذموم .

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٢ ص ٨٤

قال الإمام ابن كثير : وقوله « إلا من رحم ربك » أي : إلا المرحومين من أتباع الرسل ، الذين تمسكوا بما أمروا به من الذى أخبرتهم به رسل الله إليهم ، ولم يزل ذلك دأبهم ، حتى كان النبي - صلى الله عليه وسلم - الأمى خاتم الرسل والأنبياء ، فاتبعوه وصدقوه ونصروه ، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة؛ لأنهم الفرقة الناجية ، كما جاء فى الحديث المروى فى المسانيد والسنن ، من طرق يشد بعضها بعضا : إن اليهود افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن النصارى افترقوا على ثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا فرقة واحدة . قالوا : ومن هم يارسول الله ، قال : ما أنا عليه وأصحابى »[1] .

واسم الإشارة فى قوله « ولذلك خلقهم » يعود على المصدر المفهوم من مختلفين قال الآلوسى : فكأنه قيل : وللإختلاف خلق الناس ، على معنى لثمرة الاختلاف من كون فريق فى الجنة وفريق فى السعير خلقهم .

واللام لام العاقبة والصيرورة ، لأن حكمة خلقهم ليس هذا ، لقوله - سبحانه - « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ولأنهم لو خلقهم له - أى للاختلاف - لم يعذبهم على ارتكاب الباطل .... »[2]

ومنهم من جعل الإشارة إلى الرحمة لأنها أقرب مذكور ، فيكون التقدير : إلا من رحم ربك ولرحمته - سبحانه - خلق الناس .

وصح تذكير اسم الإشارة مع عودته إلى الرحمة لكون تأنيثها غير حقيقى .

ومنهم من جعل الإشارة إلى مجموع الاختلاف والرحمة ، لأنه لا مانع من الإشارة بها إلى شيئين كما فى قوله « عوان بين ذلك » أى بين الفارض والبكر .

فيكون المعنى : وللاختلاف والرحمة خلقهم . أى أنه - سبحانه - خلق أهل الرحمة للرحمة وأهل الاختلاف للاختلاف .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٩١ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٤٧ .

وقد رجح الإمام القرطبي هذا الوجه فقال : قوله ، ولذلك خلقهم ، قال الحسن ومقاتل وعطاء :

الإشارة إلى الاختلاف ، أي : وللاختلاف خلقهم . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك :

الإشارة إلى الرحمة : أي : ولرحمته خلقهم .

وقيل : الإشارة إلى الاختلاف والرحمة ، وقد يشار بذلك إلى شيئين متضادين ، كما فى قوله - تعالى - ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ، ...

وهذا أحسن الأقوال - إن شاء الله - لأنه يعم . أي : ولما ذكر خلقهم .. أي : خلقهم ليكون فريق فى الجنة وفريق فى السعير . أي خلق أهل الاختلاف للاختلاف وأهل الرحمة للرحمة .... ،[1]

والمراد بكلمة ربك فى قوله - سبحانه - ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ، قضاؤه النافذ ، وإرادته التى لاتتخلف ، وحكمه الأزلى .

أي : وتمت كلمة ربك، ونفذ قضاؤه، وثبت حكمه الذى أكده وأقسم عليه بقوله : لأملأن جهنم من عصاة الجن ، ومن عصاة الإنس أجمعين ، لأنه من المعروف أن الوعيد إنما هو للعصاة والمذنبين وليس للمؤمنين الصادقين .

قال الآلوسى : وفى معنى ذلك ماقيل من أن المراد بالجنة والناس أتباع إبليس لقوله - تعالى - فى سورة الأعراف وفى سورة ص ، لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين ، فاللازم دخول جميع تابعيه فى جهنم ، والقرآن يفسر بعضه بعضا ... ،[2]

ثم بين - سبحانه - أهم الفوائد التى تعود على الرسول - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) تفسير القرطبي ج ٩ ص ١١٥ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ١٢ ص ١٤٨ .

من وراء إخباره بأحوال الأنبياء السابقين مع أقوامهم فقال : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ماتثبت به فؤادك .... »

والتنوين فى قوله « وكلا » للعوض عن المضاف إليه . والأنباء جمع نبأ وهو الخبر الهام :

أى : وكل نبأ من أنباء الرسل الكرام السابقين نقصه عليك - أيها الرسول الكريم - ونخبرك عنه .

فالمقصود به تثبيت قلبك ، وتقوية يقينك ، وتسلية نفسك ونفوس أصحابك عما لحقكم من أذى فى سبيل تبليغ دعوة الحق إلى الناس .

وقوله - سبحانه - : « وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين » بيان لما اشتملت هذه السورة الكريمة من أخبار صادقة ، وعظات بليغة .

أى وجاءك - أيها الرسول الكريم - فى هذه السورة الكريمة وغيرها من سور القرآن الكريم : الحق الثابت المطابق للواقع ، والعظات الحكيمة ، والذكرى النافعة للمؤمنين بما جئت به ...

وأما الذين فى قلوبهم مرض فقد زادتهم هذه السورة وأمثالها رجسا إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون .

ثم أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - بالسير فى طريق الحق بدون مبالاة بتهديد أعدائه فقال : « وقل الذين لايؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون » والأمر فى هذه الآية الكريمة للتهديد .

ومكانتكم : مصدر مكن - بزنة كرم - مكانة ، إذا تمكن من الأمر أبلغ التمكن .

أى : وقل - أيها الرسول الكريم - لهؤلاء المشركين الذين يضعون العقبات فى طريق دعوتك ، قل لهم اعملوا ماتستطيعون عمله من الكيد لى ولدعوتى ، فإنى وأصحابى مستمرون على السير فى طريق الحق الذى هدانا الله

إليه ، بدون التفات إلى كفركم وقل لهم - أيضا - : انتظروا ما يأتى به الله من عقاب ، فإنا منتظرون معكم ذلك .

ثم ختم - سبحانه - السورة الكريمة بهذه الآية الجامعة فقال : «ولله غيب السموات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون » .

أي : ولله - تعالى - وحده علم جميع ماغاب عن الحواس فى السموات والأرض ، وإليه وحده يرجع الأمر كله من إحياء وإماتة، وهداية وضلال، وصحة ومرض ، ونصر وهزيمة .

ومادام الأمر كذلك «فاعبده وتوكل عليه» أى : فأخلص له العبادة، واجعل توكلك عليه وحده .

« وما ربك بغافل عما تعملون » بل هو مطلع وبصير بأعمال عباده جميعا، لايعزب عنه مثقال ذرة منها، وسيجازى الذين أساءوا بما عملوا، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى .

أما بعد : فهذا تفسير لسورة هود — عليه السلام — أسأل الله — تعالى — أن يجعله خالصا لوجهه ونافعا لعباده . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ؟

المدينة المنورة — صباح الخميس ٥ من جمادى الثانية سنة ١٤٠١ هـ
الموافق ٩ من أبريل سنة ١٩٨١ م
محمد السيد طنطاوى

الفهـــرس

فهرس تفسير سورة هود ـ عليه السلام ـ

رقم الايداع ٢٩٠٢ / ١٩٨٤